طبقات المفسرين بالرأي ومناهجهم

دكتور

سيد زكى خليل إبراهيم

أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن

كليه الدراسات الإسلامية والعربية بنات بنى سويف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

الحمد لله أنزل كتابه هدى للمتقين، ونوراً وضياء للمتـذكرين ورحمـة للمحسنين، وشفاء للمؤمنين، وتذكرة للموقنين، ونعمة وفضلاً للعالمين، وحجـة قائمة على الخلق إلى يوم الدين.

والصلاة والسلام على من أرسله رحمـة للعـالمين، وسـراجاً منيـراً للمستبشرين، ومناراً للسالكين، ومعلماً للخلق أجمعين، بنور هذا الكتاب المبين.

وبعد..

فهذا بحث يتناول دراسة طبقات المفسرين بـالرأى، واتجاهـاتهم التـي تعددت مشاربها، وذلك ببيان نبع كل مفسر، على طريقة جمل المتفـق، وجمـل المختلف والمجدد، وذكر طرف من اتجاه كل واحد منهم.

إذ تناول كل طبقة بجميع أفرادها، وبيان منهج كل مفـسر علـى حـدة بالتفصيل، من لدن تدوين التفسير بالرأي إلى يوم الناس هذا يتعذر إن لـم يكـن مستحيلاً.

ولكن بضم المثيلات إلى بعض في أكثر الملامح العامة لكل طبقة كـاف بالغرض في دراسة طبقات المفسرين بالرأي، الذين كثروا عدداً وتفرقوا زمناً.

وقد ذكرت في القسم الأول من هذه الدراسة طبقات المفسرين بالمـأثور وقسمتهم إلى خمس طبقات. وذكرت المقصود من الطبقة والمنهج.

وهذه الملامح العامة في طبقات المفسرين بالرأي، من جهة ما يستندون إليه في التفسير ينحصر في رأي في ثلاثة ملامح:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١) أن يكون الملمح البارز في هذه الطبقة هو إتقان كل فرد منها علماً من علوم القرآن، أو أصلاً من أصول التفسير، فيغلب على تفسيره هذا العلم الذي أتقنه، وإن استعمل في تفسيره علوم القرآن الأخرى، غير أنه قليل، يكاد لا يظهر بسبب غلبة العلم الذي أتقنه، وتناول به التفسير.

(٢) أن يكون الملمح البارز في هذه الطبقة الثانية هو اتباع أفرادها في أصول التفسير التي يجب أن يفسر بها اصطلاحات عقدية أو مذهبية أو فلسفية أو غير ذلك مما هو ليس من أصول التفسير المتفق عليها من لدن عصر الصحابة رضى الله عنهم، ومشى عليها من تبعوهم، إذ هذه الأصول أدلة يقينية، لأن مصدرها الكتاب والسنة وأصول اللغة التي نزل بها القرآن.

فهذه الطائفة انحرفت عن هذه الأصول المتفق عليها إلى أصول أخرى اصطلحوا عليها، وهم كثر متواجدون على مر العصور.

(٣) أن يكون الملمح البارز في هذه الطبقة الثالثة هو اتباع أفرادها لأصول التفسير المتفق عليها، وما زاد عليها من علوم القرآن، ثم جددوا في عرض التفسير بطرق مختلف لإبراز هدايات القرآن، وإعجازه وسلطانه على الخلق.

فهذه الطائفة أخذت بالأصول المتفق عليها في التفسير، ولكنها جددت في العرض والبيان لجذب الخلق إلى كتاب الله تعالى الذي هم في أمس الحاجة إليه في كل شئون معاشهم ومعادهم، وإقامة البراهين على أنه الحق من ربهم.

وهذا هو وجه حصر طبقات المفسرين بالرأي في ثلاث طبقات وبهذا الاعتبار قسمت هذا البحث في طبقات المفسرين بالرأي ثلاث طبقات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١) طبقة أفرادها قد برع كل واحد منهم في أصل من أصول التفسير، أو فن له أصول، وليس كل أصول التفسير، بل قل تناوله التفسير بأصول التفسير كلها.

(٢) طبقة أفرادها قل أخذهم بأصول التفسير، وبعضهم يكاد ينعدم أخذه لها، بل تناول التفسير بأصول أخرى مصطلح عليها، ليس لها دليل من كتاب أو سنة، ولذا جاء الانحراف كلاً أو جزءاً في تفسيره.

(٣) طبقة أفرادها أخذ بكل أصول التفسير المتفق عليها، ولها أدلتها اليقينية، وجددوا في العرض والبيان، وإبراز هدايات القرآن.

وإني لأرجو من الله العلي القدير أن ينفع بهذا البحث صاحبه ومن بلغ، وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وفائدته عميم.

وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الأمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمهيد

التفسير بالرأي

يطلق الرأي ويراد به الاعتقاد، يقال: رأيت كذا إذا اعتقدته ويطلق ويراد به الاجتهاد، ويراد به القياس، ومنه أصحاب الرأي، وهو القياس [1]

والمقصود به هنا الاجتهاد، لأن المفسر يجتهد رأيه في الوصول إلى ما يعتقد أنه الصواب في تفسير النص القرآني.

وعليه فقد ذكروا أن التفسير بالرأي هو: عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، ومعرفته للشعر الجاهلي، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من أدوات المفسر [2]

والمتأمل لهذا التعريف سيجد أن المفسر يستند في التفسير برأيه إلى الأصول التي أصلها العلماء الأُوَلُ من الصحابة والتابعين، غير أنه ساق ذلك بأسلوب وقوالب مختلفة مع توسع كبير في دائرة المعنى القابل لهذا التوسع.

فهو تفسير مسند، غير أنه زاد بموجب هذه الأصول زيادات في المعنى الدلالي لاحتياج الخلق إلى ذلك.

---

(١) انظر إرشاد الفحول للشوكاني /٢٥٠.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي جـ١ /٢٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس ذلك تفسيراً بمجرد الرأي، الذي لا يستند إلى شئ من ذلك بل هو تفسير محمود لجريانه على القواعد التي كان عليها الصحابة رضى الله عنهم في تفسير القرآن.

أما التفسير بمجرد الرأي فهو الذي لا يستند إلى قوانين اللغة وليس موافقاً للأدلة الشرعية، وليس مستوف لشروط التفسير وضوابطه.

فالتفسير بالرأي الذي هو اجتهاد المفسر في النص القرآني، قد يستند في اجتهاده على أصول التفسير التي أصلها العلماء قديماً وحديثاً ويتوسع في ذلك بحسب الحاجة، وهذا وجه الاجتهاد في التفسير، يقول الإمام الزركشي: ولابد للمفسر من معرفة قواعد أصول الفقه، فإنه من أعظم الطرق في استثمار الأحكام من الآيات (١).

وقد لا يستند إلى شئ من هذه الأصول، فيكون اجتهاده في التفسير لمجرد رأي رآه في النص، وقد يستند إلى مذهب أو عقيدة لا تستند إلا لمجرد الرأي.

فإذا أطلق فقيل التفسير بالرأي، فقد يراد به هذا وهذا، فلابد من التبين، إذ الأول محمود، والثاني مذموم مردود.

أقسام التفسير بالرأي: ــ

قد ظهر من ذكر التعريف السابق للتفسير بالرأي، أنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود، وهو الذي يعتمد المفسر فيه على أصول التفسير التي قعدها العلماء من الصحابة فمن بعدهم، وعلى

---

(١) البرهان في علوم القرآن ج٢ / ٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأس هؤلاء جميعاً ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، فهما اللذان وضعا أسس هذه الطريقة في التفسير، وذلك عند عدم وجود نص قرآني يفسر به نص آخر، أو عدم وجود نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير النص أو الآية، أو عدم نقل صحابي شاهد المنزل، وعلم ملابسات ذلك المنزل، وليس فيما فسره مجال للرأي، فإن الصحابي كان يجتهد في تفسير النص بهذه الأصول، وكذلك ما معه من لسان يوافق المنزل، وعلم قواعد الشريعة، كل هذا وغيره من الأصول، كان الصحابة يستندون إليها في تفسيرهم لنصوص القرآن، وكانوا يوسعون دائرة المعنى في النص بهذه الطريقة.

وكذلك من جاء بعدهم من التابعين الذين تتلمذوا عليهم، فهذا التفسير محمود لأن أصوله مستندة إلى القواعد اللغوية والشرعية، وليس هو بمجرد الرأي والهوى، أو مجرد خاطر أو استحسان.

ولذا قلت: إن هذا التفسير يعد تفسيراً مأثوراً، لاستناده إلى أصول شرعية، ولغوية مسندة كذلك.

ونسبة الرأي إليه إنما هو عن طريق الاجتهاد المستند لهذه الأصول توسعاً للدلالة النصية القابلة لهذا، بسبب احتياج أهل كل عصر لذلك، ولأن معاني القرآن لا تنفد ولا تتناهى.

فمثال إعمال الفكر والاجتهاد في النص المستند إلى اللغة والشرع ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) [1]

قال: الحمد لله الذي قال: عن صلاتهم، ولم يقل: في صلاتهم [2] وقد روى ذلك عن عائشة رضى الله عنها قالت: والله ما ضيعوها وإنما أخروها عن وقتها المختار [3].

فهذا إعمال الفكر والاجتهاد في معرفة التعاور بين حرفي ــ عن و ــ في ــ عن طريق الوضع اللغوي لكل من الحرفين، لمعرفة المعنى المقصود من الآية، ولا ريب أن معرفة الوضع اللغوي لكل من الحرفين يوصل إلى معرفة المعنى الحكمي من النص، وإبراز المعاني الأخرى التي تواطأت على الحرف، لتوسيع دائرة المعنى في النص، وهذا كله اجتهاد في معرفة ما يحويه النص من المعاني التي لا تتناهى عن طريق الأصل الأول المنقول في التفسير.

وكما قيل في هذا النص، يقال في قوله تعالى (ولأصلبنكم في جذوع النخل) [4] فجاء النص بـ في، ولم يأت بحرف ــ على ــ لبيان التمكن من صلبهم، وأن جذوع النخل كانت بمثابة الظرف، مع توافق معنى حرف ــ على، بمعونة السياق، فقد صلبهم في جذوع النخل، وكان ذلك عليها.

---

(١) سورة الماعون / ٥.

(٢) معترك الآقران في إعجاز القرآن للسيوطي م١ / ٥١٧.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي م٢ / ٦٥٩.

(٤) سورة طه / ٧١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهذا وغيره اجتهاد وإعمال فكر في أوضاع الألفاظ المتواطأة والمترادفة والمشتركة وغيرها، مما طريقه اللغة، وهو رأي يستند إلى اللغة وهو أمر محمود، بل مطلوب شرعاً.

ومثال إعمال الفكر والاجتهاد في النص المستند إلى قاعدة شرعية مصدرها الكتاب والسنة، إذ القواعد الشرعية أدلة يقينية.

ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)[1] قال ابن عباس رضى الله عنهما: الذين ينفقون في اليسر والعسر، وقيل: في حال السرور والاغتمام، وقيل: في الحياة وبعد الموت بأن يوصي، وقيل: فيما يسر كالنفقة على الولد والقريب، وفيما يضر كالنفقة على الأعداء.

قال الإمام الألوسي: والمتبادر ما قاله الحبر[2].

لأن ما قاله أراد به التعميم، وهذا هو المعهود في النظم القرآني، فهذا مستنده القرآن نفسه، من خلال ألفاظه ونظمه، فهو تفسير بالرأي المستند إلى دليل شرعي وهو عمومية ألفاظ القرآن.

ومثال آخر في قوله تعالى (والعافين عن الناس)[3] قال ابن القيم الجوزية: فيه قولان أحدهما: أنه العفو عن المماليك، قاله ابن عباس والربيع.

---

(١) سورة آل عمران / ١٣٤.

(٢) روح المعاني للألوسي م ٢ ج ٤ ص ٥٨.

(٣) سورة آل عمران / ١٣٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والثاني: أنه على إطلاقه، فهم يعفون عن من ظلمهم، قاله زيد ابن أسلم ومقاتل[1].

وقال الألوسي: (والعافين عن الناس) أي المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، وقيل: عن المملوكين إذا أساءوا، والعموم أولى[2].

فهو قد ذكر الأقوال في الآية، لكن غير مسندة إلى قائليها، وقد تجاوز في معنى شرح ما روى، ثم رجح قول من قال بالعموم لظاهر النص وبدليل أن الإحسان في قوله (والله يحب المحسنين) بمعنى الإنعام والعفو من الإنعام وذكر لفظ (الناس) يفيد تأكيد العموم.

فالإسناد إلى عموم الألفاظ، والقرآن جاء باللفظ أعم، أولى وأقوم في تفسير القرآن، وهو من القواعد الكلية الشرعية واللغوية.

والمتأمل في تفسير الألوسي وغيره لجملة الآية يجد أنه قد أعمل فكره وجهده وفسر جملة الآية مستنداً على ما ورد فيها من الآثار، وقد رجح العموم بناء على القواعد العامة في القرآن نفسه.

وهذه طريقة ابن عباس رضى الله عنهما في التفسير بالرأي المستند إلى عموم اللغة أو عموم القواعد الشرعية، والأمثلة في هذا كثيرة.

---

(١) زاد المسير لابن القيم / ١ / ٤٦١.

(٢) روح المعاني للألوسي م٢ / ج ٤ / ٥٨ ، ٥٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول الإمام الزركشي: وما لم يرد عن صاحب الشرع بيان ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد [1]

نشأة التفسير بالرأي: ـ

إن التفسير بالرأي قد وجد ونشأ في عهد نزول القرآن، جنباً إلى جنب مع التفسير بالمأثور، والصحابة المفسرون هم الذين تناولوا هذا المنهج في التفسير توسيعاً لدائرة المعنى، وتفريعاً لأصل من أصول الشرع.

ولقد كان الصحابي المفسر يجتهد رأيه المستند إلى عموم اللغة أو قاعدة شرعية، إذا لم يجد تفسيراً في آي القرآن أو السنة للنص الذي يتناول تفسيره، وهذا منهج محمود، بل قد يكون مطلوباً شرعاً.

وقد يشير إليه توسعاً قوله تعالى (لعلمه الذين يستنبطونه منهم)[2]. يريد الذين يستخرجونه منهم، وهو استفعال من انبطت الماء استخرجته [3].

فالاستنباط هو استخراج الحكم بالاجتهاد، فهو اجتهاد وإعمال فكر بقواعد متفق عليها لاستخراج حكم لأمر ما عن طريق معرفة أحكام المعاني التي للألفاظ.

وقد روى عن علي رضى الله عنه حينما سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ ؟ فقال: (ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة، أو فهم يؤتاه الرجل) [4]، يعني في كتاب الله تعالى.

---

(١) البرهان للزركشي / ٢ / ١٦٢.

(٢) سورة النساء / ٨٣.

(٣) المفردات للراغب / ٤٨١ ، ومختار الصحاح / ٦٤٣.

(٤) ذكره الزركشي في البرهان ج ٢ / ١٦١ ، وقال رواه البخاري في كتاب الجهاد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإذا كان الذي يفسر القرآن معتمداً على عموم اللغة أو ما يحتمله اللفظ أو قاعدة عامة شرعية يعتبر تفسيراً بالرأي، فإنه يمكن القول أن التفسير بالرأي نشأ في عصر الصحابة الكرام، وعلى أيدي أوائلهم الذين مارسوا التفسير.

إذ هذا التفسير قد اتسع مدرسياً على يدي عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه، حيث ثبت عنهما تفسير نصوص قرآنية كثيرة عن طريق المدلول اللغوي بالاستشهاد على صحة تفسيرهما بمشابهة مدلول الكلمة في الشعر العربي القديم، وعموم اللغة والقياس، فالمفسر بالرأي المحمود يعتمد في تفسيره على المدلول اللغوي للنصوص، كما استعملها العرب عند نزول القرآن، وإحاطة المفسر بأحوال النص، والمؤثرات التي يحتملها اللفظ، والترجيحات إلى أحد المعاني المحتملة للنص على غيرها، وإلحاق النظير بنظيره.

وبهذا تكون مدرسة التفسير بالرأي، قد نشأت في الأيام الأولى لنشوء التفسير المأثور.

فالتفسير بالمأثور لم يسبق التفسير بالرأي، بل كانت ممارسته الأولى في عهد الصحابة ومن قبلهم رضى الله عنهم، ومن بعدهم فعل التابعون كذلك.

ولقد كان ابن عباس رضى الله عنهما أجسر الصحابة الكرام تفسيراً للقرآن بالرأي وذلك لما آتاه الله تعالى من ذكاء ثاقب، وعلم غزير، وذلك ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد / ١ / ٣٣٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد خلف ذلك عنده القدرة على التفسير والثقة بالنفس.

وقد زاول تلاميذه من التابعين كمجاهد وقتادة وغيرهما التفسير بالرأي معتمدين على ما ورثوه من علوم القرآن عنه، وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما، وما توصلت إليه عقولهم من اجتهادات ورثوها عن الصحابة رضى الله عنهم، وذلك بالاعتماد على عموم اللغة وقياسها والثقافة الشرعية العامة.

وكان لهذا التفسير بالرأي رواة يروونه بأسانيد عن أئمة التفسير من الصحابة أو التابعين.

غير أن هذا التفسير مع صدوره من الصحابة والتابعين، والذي استندوا فيه إلى عموم اللغة والشرع، قد واجه عقبات كثيرة من قبل أولئك الذين تحرجوا في الأخذ به ونقله، ليس لوجود شبهة في الأخذ به وإنما للرهبة الحاصلة من مفهوم عموم الأدلة الواردة في النهي عن القول في القرآن بالرأي، وإن كان هذا النوع من التفسير بالرأي ليس هو المقصود بالنهي، لأنه يستند إلى أصول التفسير التي أصلها الصحابة رضى الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي طريقة الاجتهاد التي علمها صلى الله عليه وسلم للصحابة رضى الله عنهم.

إن تقديس المؤمنين للتفسير المأثور، ويحق لهم ذلك لتوثيقه جعلهم يترددون في مزاولة التفسير بالرأي، وهذا تسبب عنه تأخر تدوين التفسير بالرأي، تفسيراً كاملاً للقرآن إلى ما بعد القرن الثالث الهجري، وإن كان يوجد تفسير بالرأي عن طريق الأصول اللغوية والأقيسة العربية، كما في كتب ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سمى بغريب القرآن [١]، وإعراب القرآن[٢]، ومجاز القرآن[٣]، ومعاني القرآن [٤] وغير ذلك مما يتعلق بفروع اللغة، وهو تفسير مبني على مدلولات الألفاظ من الناحية اللغوية، وهذه التفاسير لا يقتصر على المعنى اللغوي والوضع اللغوي للنص القرآني، ولكن يتعرض لأكثر من ذلك في توسيع دائرة المعنى مما يجعلها في عداد التفسير للقرآن بالرأي، وهذه التفاسير لا تذكر الإسناد إلا في توثيق قراءة أو ذكر قراءة شاذة لها وجه لغوي صحيح [٥].

ومن هذا يتبين أن التفسير بالرأي الذي يستند إلى عموم اللغة وقواعد الشرع العامة، قد زاوله المسلمون منذ وقت مبكر، بل كان مع التفسير بالمأثور، لكن لم يظهر بشكل كامل وقت ممارسته ومزاولته وإنما ظهر بعد ذلك بوقت غير يسير لحاجة الناس إلى معرفة السعة الدلالية واحتمالات النصوص من المعاني.

وهذا التفسير بالرأي هو التفسير المحمود المقبول، لأنه ليس تفسيراً بمجرد الرأي، أو يستند إلى بدعة مذهبية أو هوى، بل يستند إلى أصول تفسيرية أصلتها بموجب قواعد كلية المدرسة الأولى، وهي مدرسة الصحابة رضى الله عنهم، وعلى رأسهم إمام الأئمة إلى يوم الدين في التفسير عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

---

(١) مثل المفردات للراغب الأصفهاني ، وقبله لابن قتيبة: مشكل القرآن.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، انظر ج ٢ / ٥٠.

(٣) مثل مجاز القرآن لابن المثنى ، انظر ج٢ / ٤٠.

(٤) مثل معاني القرآن للأخفش ، انظر ج ١٦٤.

(٥) انظر على سبيل المثال: معاني القرآن لسعيد بن مسعدة الأخفش ج١ / ١٦١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهو المؤسس لكل من نوعي التفسير، التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي المقبول الذي يستند إلى قواعد أصول التفسير الكلية، وإن كان كثير من تفسيره أخذه من غيره [1].

والناظر المتأمل للتفسير بالمأثور يجد أن كثيراً منه بمثابة الأصل الذي يستند إليه، لأن غالب التفسير المأثور هو بمنزلة القاعدة الكلية لما يبنى عليها، مع كونه تفسيراً، ولذا كان غالبه وجيزاً، ليس وجازة في اختيار معنى وإنما لجماعه بين سنة الخطاب للغة الزمنية، واستيعابه لمعان أخرى، وجميع ذلك بمثابة القاعدة الكلية لما يبنى عليها، أو ما يتفرع منها غيرها.

* * *

(١) انظر ما ذكره ابن عباس في أخذه التفسير عن علي رضى الله عنهما ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١ / ٥٠ ، والقسم الأول من هذه الدراسة ص /

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طبقات المفسرين بالرأي

[الطبقة الأولى من المفسرين بالرأي]

هذه الطبقة من المفسرين هم قوم متفرقون زماناً، وقد برعوا في علوم اللغة وغيرها، فكان كل واحد منهم يقتصر في تفسيره على العلم الذي يغلب عليه، وهو يتقنه.

وذلك بعد أن دونت علوم اللغة، ودون علمي النحو والصرف وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهي، وأثيرت مسائل علم الكلام بعد أن ترجمت كتب الفلسفة، وظهر التعصب المذهبي وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها فامتزجت هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث في التفسير، حتى طغت عليه.

فالذي أتقن علم النحو ليس له هم إلا عرض قواعد الإعراب على جمل الآية، وإيراد الأوجه المحتملة فيه، ونقل مسائله وفروعه وخلافياته.

وذلك مثل ما كان من العلامة الزجاج في كتابه "معاني القرآن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإعرابه"[1]، فهو كتاب تناول فيه إعراب جمل الآي، وذلك مدخل لاستخراج المعاني، والإعراب علم من علوم القرآن، لكن الاقتصار عليه وحده في التفسير لا يكفي، إذ يصبح تطبيقاً لقواعد الإعراب.

ومثل تفسير الزجاج، تفسير العلامة أبي حيان الأندلسي، في البحر والنهر [2]، ومثل منهج أبي حيان، كان السمين الحلبي في كتاب الدر المصون في علوم الكتاب المكنون[3] وغيرهم كثير.

والذي أتقن علم الفقه، وغلب عليه، يكاد يسرد في التفسير الفقه كله من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد في الآية، لإقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين، وذلك مثل تفسير الإمام القرطبي [4]. ففيه استطراد في مسائل الفروع الفقهية يكاد يجعله كتاب فقه فهو يغلب عليه هذا الجانب، وإن لم يهمل الجوانب الأخرى في التفسير.

والذي أتقن العلوم العقلية، من الفلسفة وعلم الكلام، فإنه قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها والرد عليها، وخرج من شئ إلى شئ حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية، وذلك مثل تفسير العلامة الفخر الرازي، في كتابه " مفاتيح الغيب".

وقد كان الفخر الرازي في تفسيره هذا مولعاً بكثرة الاستنباطات والاستطرادات ما دام يستطيع أن يجد صلة ما بين المستنبط و المستطرد إليه

---

(١) انظر كتابه المطبوع على سبيل المثال ج١ / ٢١٩.

(٢) انظر البحر المحيط لأبي حيان ، على سبيل المثال ج٧ / ٨٣.

(٣) انظر كتابه المطبوع على سبيل المثال ج١ / ٢٠٨.

(٤) انظر تفسيره الجامع لأحكام القرآن على سبيل المثال م ٧ ج ١٣ / ٢٧٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبين اللفظ القرآني، ومع هذا لم يغفل العلوم الأخرى في تفسيره غير أن اللون الكلامي والعقلي والاستطرادي يغلب عليه، وذلك لعنايته بالرد في كل مسئلة من مسائل الآية القرآنية على المعتزلة[١]. والذي أتقن علم التاريخ والأخبار، ليس له شغل في تفسيره إلا ذكر القصص واستيفائها، والأخبار عمن سلف، سواء كانت الأخبار صحيحة أو باطلة وذلك مثل تفسير الثعلبي وتفسير الخازن.

فقد كان الثعلبي مولعاً بالأخبار والقصص إلى درجة كبيرة، بدليل أنه ألف كتاباً يشتمل على قصص الأنبياء.

ولو رجعت إلى تفسيره، في قوله تعالى (إذ آوى الفتية إلى الكهف) الآية [٢].

فهو يروي عن السدي ووهب وغيرهما كلاماً طويلاً في أسماء أصحاب الكهف وعددهم، وسبب خروجهم إليه، ويروي عن كعب الأحبار، ما جرى لهم مع الكلب حين تبعهم إلى الغار [٣].

وقد ذكر قصصاً كثيراً، وأخباراً في نهاية الغرابة والبعد، في شأن يأجوج ومأجوج وهي أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة. والذي أتقن علم البيان، فإنه يغلب على تفسيره استخراج الوجوه البيانية في جمل الآية، وذلك مثل الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف، وهذا أمر محمود من الإمام محمود، غير أن توجهات التفسير الأخرى خاصة جانب النقل عن السلف منها قليل في تفسيره[٤].

---

(١) انظر على سبيل المثال تفسيره الكبير جـ ١٣٣/٤.

(٢) سورة الكهف / ١٠.

(٣) انظر تفسيره المطبوع جـ ٥١٥/٣.

(٤) انظر وجه البيان على سبيل المثال في تفسيره الكشاف ج٢ / ١٢٤ ، ١٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والذي أتقن علم السلوك، فإنه يغلب على تفسيره عرض الآيات القرآنية على ما يسمى بعلم السلوك عندهم، وهو بمنزلة ما يسمى بأصول التفسير عند المفسرين.

فعلم السلوك هو عبارة عن اصطلاحات اصطلح عليها ما يتبع تفسير القرآن بهذه الطريقة التي يرجع أصلها إلى ما يسمى بالوجدان أو المواجيد التي يراها أرباب السلوك، وأصحاب الإشارات.

وقد يرجع بعض هذه الاصطلاحات إلى ثقافات أخرى دخيلة على الثقافة الإسلامية.

والمولع بالعلوم الحديثة المغالي لها، يريد بتفسيره لآي القرآن أن يجمع بين العلم واكتشافات الكون، وبين آي القرآن، وقد يبالغ بعضهم في هذا فيقع في تطويع آي القرآن للعلم الحديث مطلقاً، من غير تقييد وقد لا يكون لديه ما يجب مراعاته من معرفة أصول التفسير، فيقع في خطأ حال تفسيره للقرآن تفسيراً علمياً، لأنه يستعين في تفسيره العلمي بمكتشفات العلم الحديث فحسب.

وهكذا تجد كل من برع في فن اقتصر أو كاد يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه.

والواجب مراعاة كل هذه العلوم وغيرها مما يحتاج إليه المفسر من علوم القرآن قدر إمكانه، إذ هي علوم قد لا تحصر.

فكلما كان المفسر مورداً في تفسير الآية أكبر عدد من علوم القرآن كان أقرب إلى المراد من المقصود إلى ما سيقت إليه جمل الآية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهذه الطبقة من المفسرين افترقت زماناً، لكن يجمعها أن كل واحد منهم قد برع في علم من علوم القرآن، وغلب تفسيره بذلك اللون الذي برع فيه، لذا فإنه يستفاد منه في هذا الجانب الذي برع فيه بضمه إلى غيره من العلوم حتى يكتمل بالوصول إلى المراد من الآية أو قريب منه، إذ آي القرآن أوسع وأعظم من أن تفهم وتعلم عن طريق علم واحد أو بعض العلوم، فالنص القرآني أعلى وأوسع وأجزل من أن يدرك المراد منه بعلم من علوم القرآن أو بعض علومه، يقول الله تعالى (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) [1].

فعلى المفسر لكتاب الله تعالى إبراز هدايات القرآن الكبرى، في التوحيد والعبادة والطاعة التي لله تعالى، والتي خلق الخلق من أجلها وهداياته في تشريعاته للفرد والجماعة، والعمران والحضارة، وإرسائه لقواعد العدل والإحسان بين الخلق والوصول بهذه الهدايات إلى سعادة الدنيا والآخرة.

[الطبقة الثانية من المفسرين بالرأي]

هذه الطبقة من المفسرين، هم طبقة المنحرفين عن أصول التفسير التي أجمع عليها المفسرون من عهد الصحابة رضى الله عنهم إلى يوم الدين، والمبتدعين الذين انحرفوا عن علوم القرآن في تفسيرهم فأخذوا يفسرون القرآن على قواعد قعدوها بموجب مذهب اختاروه، أو عقيدة اعتقدوها وهذا المذهب وذلك الاعتقاد فاسد باطل.

---

(١) سورة لقمان / ٢٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالمبتدع ليس له قصد في تفسير القرآن إلا تحريف معاني الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال، سارع إليه.

وذلك مثل ما في تفسير الرماني والجبائي، والقاضي عبد الجبار والطبرسي[1] وملا محسن الكاشي، من الإمامية الاثنى عشرية والزمخشري من المعتزلة.

قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله في تفسير قوله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)[2]. يقول الزمخشري: وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية [3].

فالإمام الزمخشري ينصر مذهب المعتزلة في تفسيره، ويتبع الأسلوب البارع في إيقاع القارئ في مذهب الاعتزال، لذا وجب قراءة كشافه مع حاشية من حواشي أهل السنة، إذ تفسيره البياني لا يستغني عنه أحد.

ومن التفاسير التي يوجد فيها انحراف، تفسير مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي، فهو يرى ولاية وإمامة علي كرم الله وجهه، ويرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وصى بولايته من بعده، مستدلاً بقوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) [4] فهو يبذل مجهوداً كبيراً لاستخلاص وجوب إمامة علي رضى الله عنه من هذه الآية.

---

(١) انظر على سبيل المثال تفسير الطبرسي ١/٥٠

(٢) سورة آل عمران / ١٨٥.

(٣) الكشاف للزمخشري / ١ / ٤٨٥.

(٤) سورة المائدة / ٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد تأثر بمذهب المعتزلة اعتقاداً.

وهذا كله انحراف عن مذهب أهل السنة في الاعتقاد وغيره من الأحكام إضافة إلى أنه يوجد في تفسيره، تفسير بالرمز، كما في قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح..) الآية [1]، وذلك على طريقة الشيعة التي يقولون بها [2]، وإن كان الطبرسي معتدلاً في تشيعه.

ومن التفسير المنحرف تفسير الباطنية، فهم يؤولون النصوص القرآنية تأويلاً باطنياً، بحجة أن القرآن له ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشرة، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب، وقد استدلوا على هذه القاعدة بقوله تعالى (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) [3] ولا علاقة لمعنى الآية بالقاعدة التي قعدوها إذ الآية واردة في شأن من شئون الآخرة.

ومن أمثلة النصوص القرآنية التي أولوها: الوضوء، فهو عندهم عبارة عن موالاة الإمام، والتيمم: هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة، والصلاة: عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) [4] والباب: علي والصفا: هو النبي، والمروة: علي، وهكذا كل لفظ من النص القرآني له معنى باطني لا علاقة له بالظاهر مطلقاً، وهذا من أبطل الباطل، وأشد الانحراف. [5].

---

(١) سورة النور / ٣٥.

(٢) انظر تفسير الطبرسي /١٨٩/٢.

(٣) سورة الحديد / ١٣.

(٤) سورة العنكبوت / ٤٥.

(٥) رسائل أبى الفضائل/١٣٨، ١٣٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهذا كله من التفاسير المنحرفة.

ومن التفاسير المنحرفة تفسير الخوارج: وإن كان انتاجهم في التفسير قليلاً فهناك تفسير الوهبي المسمى "هميان الزاد إلى دار المعاد" ومن أمثلة ما فيه من انحراف عن مذهب أهل السنة، موقفه من أصحاب الكبائر، فهو يأخذ من القرآن نصوصاً تدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، وليس بخارج منها، وذلك في قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[1].

فقد حاول المفسر أن يدلل من نصوص هذه الآية أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار.

ولذا تجده يندد ويلمز بأهل السنة قولهم واعتقادهم: بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب في النار على قدر معصيته، ثم يدخل الجنة بعد ذلك كما في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يؤمنون) [2] يقول: وترى أقواماً ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود في قولهم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات)[3]وكذلك ينفي الشفاعة يوم القيامة مطلقاً، ولا يفرق بين شفاعة شركية منفية كما في قوله تعالى (فلا تنفعهم شفاعة

---

(١) سورة البقرة / ٨١.

(٢) سورة البقرة / ٤.

(٣) آل عمران / ٢٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشافعين)[1] وشفاعة مثبتة جائزة لأهل التوحيد، كما في قوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) [2].

فهو ينفي الشفاعة مطلقاً مستدلاً بقوله تعالى:

(واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) [3].

وهو قد تبع في ذلك مذهب المعتزلة الذين يرون نفي الشفاعة مطلقاً يوم القيامة، كما هو ظاهر في تفسير الزمخشري المعتزلي[4].

ومن التفاسير المنحرفة تفسير بعض ما يسمى بالتفسير الإشاري أو التفسير الفيضي، وهذا التفسير هو:

تأويل لآيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك.

وأهل هذا التفسير يستندون إلى الأثر المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أثر مرسل عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(٤) سورة المدثر / ٤٨.

(٥) سورة سبأ / ٢٣.

(٦) سورة البقرة / ٤٨.

(٧) انظر الكشاف للزمخشري /١/٣٨٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع)[1]، وما روى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد)[2] وروى عن أبي الدرداء أنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها)[3].

وروى عن ابن مسعود أنه قال: (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن)[4] وهذا الذي قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

ففي هذه الآثار تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن، غير أن استعمال هذا الاصطلاح في التفسير تفاوت وتباين بين المستعملين له وذلك بسبب تفسيرهم المراد بالظهر والبطن، فكل فرقة تفسر المراد من ذلك على حسب اصطلاحها، ولذا وقع الانحراف في تفاسيرهم.

ومثال التفسير الإشاري ما ذكر في قوله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق)[5]

---

(١) الأثر. ذكره الإمام السيوطي وقال: خرجه الفريابي بسنده عن الحسن ، الإتقان /٢/١٨٤.

(٢) الأثر. ذكره السيوطي وقال: أخرجه الديلمي من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً، الإتقان /٢/١٨٤. قلت: وفي هذا السند: كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المدني، قال في التقريب: ضعيف.

(٣) الأثر. ذكره السيوطي في الإتقان /٢/١٨٥، وقال: ذكره ابن سبع في شفاء الصدور.

(٤) الأثر. ذكره السيوطي في الإتقان /٢/١٨٥، وقال السيوطي: في رواية عن ابن مسعود: من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين ، وفي رواية: خبر الأولين. ثم قال: خرجه سعيد بن منصور ، معترك الأقران م / ١/ ١٤.

(٥) سورة الحج / ٣٢ ، ٣٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد فسروا الآية فقالوا: شعائر الله أعلامه وأعلامه الدلائل الموصلة إليه، وقوله (ثم محلها إلى البيت العتيق) فقالوا: ثم محلها إلى البيت العتيق: هو بيت الإيمان عند أهل الإشارات وليس إلى قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله [1].

ويلاحظ أن هذا التفسير لا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الإشاري نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها تلك الإشارات القدسية، والمعارف السبحانية للآيات القرآنية.

ومثال التفسير الصوفي النظري ما ذكر في قوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) [2] قالوا في تفسيرها: مما خطيئاتهم أغرقوا: فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله، وهو الحيرة (فأدخلوا ناراً) في عين الماء، (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد[3].

وهذا التفسير لا ينبني على القواعد المتفق عليها عند المفسرين بل هو عبارة عن مقدمات انقدحت في ذهن المفسر الصوفي، ثم أنزل عليها القرآن ويرى صاحب هذا التفسير أن المعاني التي ذكرها من الآية بهذه المقدمات هي كل ما تحمله الآية من المعاني، وليس وراءه معنى آخر، يمكن حمل الآية عليه، وذلك بحسب طاقته.

ويلاحظ أن هذا التفسير ليس على قواعد وأصول التفسير المتفق عليها بين المفسرين المستمدة من القرآن نفسه والسنة وعموم اللغة وأصول الظاهر

---

(١) انظر الفتوحات المكية لابن عربي ج٤ / ١٠٩.

(٢) سورة نوح / ٢٥.

(٣) فصوص الحكم لابن عربي /٢١٩/١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والباطن، وتحكم في مدلول ومعنى الآية، وأنها لا تحتمل إلا ما ذهب إليه، مع انحرافه لأصول التفسير.

وهو قد جمع بذلك بين انحراف في تفسير الآية، وضيق مدلول الآية بأنها لا تدل إلا على المعنى الذي انقدح في ذهنه، وهذا شطط وجهل بالقرآن عظيم.

ومن الكتب التي كانت على هذا النمط وهذا الاتجاه في التفسير:

(١) تفسير القرآن العظيم، للإمام سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله التستري المتوفي سنة ٢٨٣هـ.

(٢) حقائق التفسير، للإمام محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي المتوفي سنة ٤١٢هـ.

(٣) عرائس البيان في حقائق القرآن، للإمام أبي محمد روزبهان أبي البقلي الشرازي المتوفي سنة ٦٦٦هـ.

(٤) التأويلات النجمية، لنجم الدين، عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدي الرازي المعروف بداية المتوفي سنة ٦٥٤هـ، وأكمله: علاء الدولة، أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمناني المتوفي سنة ٧٣٦هـ، وهذا التفسير الأخير من أهم كتب التفسير الإشاري، لأنه الأقرب إلى فهم مصطلحات التفسير الإشاري لولا هذه التكملة التي للسمناني وكانت من سورة الطور إلى آخر القرآن، وليس في هذه التكملة من السهولة ما في تفسير نجم الدين، وذلك بسبب ما يستند كل منهما من قواعد إشارية مختلفة في التفسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتفاسير المتقدمة الإشارية والصوفية النظرية ليست تفاسير كاملة، تناول أصحابها القرآن سورة سورة وآية آية، بل هي تفاسير لبعض الآيات في بعض السور، إلا ما كان من التأويلات النجمية بتكملته.

وهذا شأن شيخ الطريقة الإمام ابن عربي في كتابيه: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وإن كان متأخراً عن بعض أهل هذه الطريقة غير أنه يعتبر المنظر لها، والممنهج لطريقتهم الفلسفية الممشاجة.

وهذا التفسير بنوعيه الإشاري والصوفي النظري لا يقبل إلا إذا بين المفسر له: المعنى الموضوع له اللفظ الكريم، وأن لا يكون وراء هذا التفسير تشويش على المفسر له.

وهذا القبول ليس واجباً، وإنما لا يرفض إذا كان بما وصف وهو عدم مخالفة الباطن للظاهر من الألفاظ، إذ الأخذ بالظاهر فحسب جمود، والأخذ بالباطن فحسب انحراف وشطح.

فما كان من هذا اللون من التفسير على وفق القواعد الأصولية المتفق عليها بين المفسرين ظاهراً وباطناً، وأن الباطن فيه لا يخالف الظاهر، بل يتفق معه، ولو كان على احتمال بعيد قبل، لتوسيع دائرة المعنى الدلالي للآية، وإن خالف ذلك ردّ، أو ادعى أن لا معنى للآية إلا هذا الذي ذكره باطناً.

ومن التفاسير المنحرفة التفسير الفلسفي، وهو التفسير الذي يستند إلى الأصول الفلسفية التي جلبت من الكتب التي ترجمت، من يونانية وفارسية وهندية وغيرها، وقد استحسن تلك الفلسفة بعض علماء المسلمين، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، وتعاليمه التي لا يلحقها الشك، ولا تحوم حولها الشبه، وقد زعموا أن بإمكانهم التوفيق بين هذه الفلسفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدين، لكنهم لم يستطيعوا التوفيق لأنهما طرفان متنافران غير متقابلين، ولأنه لزمهم في هذا التوفيق تأويل النصوص الدينية والحقائق الشرعية بما يتفق مع الآراء الفلسفية، وبهذا فقد أخضعوا هذه النصوص إلى هذه الآراء حتى تتمشى معها.

أو أنهم شرحوا النصوص الدينية بالآراء الفلسفية، وهذا يستلزم تقديم الفلسفة على الدين، والتحكم في نصوصه.

فالذي وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه، ثم نظر من خلالها إلى القرآن فشرح وفسر نصوصه على حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شئ إلا التعصب الفلسفي، فقد جلب بهذا طريقاً كله شر وضلال، إذ قد وجد بهذا تفسير لبعض آيات القرآن، هي في الحقيقة شروح تفسير لبعض النظريات الفلسفية، وبهذا يكون الفليسوف قد خدم الفلسفة على حساب القرآن الكريم، الذي هو أصل الدين ومنبع تعاليمه.

ومن أمثلة هذا التفسير الفلسفي، ما وجد من تفسير للفارابي وذلك في قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) [1] فإنه يفسر ذلك تفسيراً أفلوطونياً على القول بقدم العالم فيقول: إنه الأول من جهة أنه منه، ويصدر عنه كل موجود لغيره، وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربه منه، أول من جهة أن كل زماني ينتسب إليه يكون فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشئ ووجد إذ وجد معه لا فيه. هو أول: لأنه إذا اعتبر كل شئ كان فيه أولاً وأثره، وثانياً قبوله لا بالزمان هو آخر: لأن الأشياء إذا لو حظت ونسبت إليه أسبابها ومباديها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية في كل طلب.

---

(١) سورة الحديد / ٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالغاية مثل السعادة في قولك: لم شربت الماء ؟ فتقول: لتغيير المـزاج، فيقال: ولم أردت أن يتغير المزاج ؟ فتقول: للصحة، فيقال: لم طلبت الـصحة ؟ فتقول: للسعادة والخير.

ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه، لأن السعادة والخير يطلـب لذاته لا لغيره فهو المعشوق الأول.

فلذلك هو آخر كل غاية، أول في الفكرة آخر في الحصول، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق.

ويفسر الظاهر والباطن فيقول: لا وجود أكمل من وجوده فلا خفاء بـه من نقص الوجود، فهو في ذاته ظاهر، ولشدة ظهوره باطن، وبه مظهـر كـل ظاهر كالشمس تظهر في كل خفي وتستبطن لا عن خفاء[1].

وممن شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية، وشرح النصوص القرآنيـة بها ابن سينا، الذي يدين بالقرآن، ولكنه فيلسوف محب للفلـسفة حـريص كـل الحرص على هذه الآراء الفلسفية، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن مـا هـو إلا رموز رمز بها النبي صلى الله عليه وسلم لحقائق تـدق علـى أفهـام العامـة، وأفهامهم عاجزة عن إدراكها، فرمز إليها النبي بما يمكنهم أن يـدركوه وأخفـى عنهم ما يعجز عنه إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم.

ومن أمثلة ما شرحه من آي القرآن بالنظريات الفلـسفية قولـه تعـالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) [2] فقد قال: وأما ما بلغ النبي صلى الله

---

(١) انظر: فصوص الحكم للفارابى / ١٧٠.

(٢) سورة الحاقة / ١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه وسلم عن ربه عز وجل من قوله (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فنقول: إن الكلام المستفيض في استواء الله تعالى على العرش من أوضاعه: أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية وتدعي المشبهة من المتشرعين أن الله تعالى على العرش، لا على سبيل حلول هذا، وأما في كلام الفلسفي فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك الشاسع الذي هو فلك الأفلاك، ويذكرون أن الله تعالى هناك وعليه لا على حلول، كما بين أرسطوا في كتاب سماع الكيان.

والحكماء المتشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هنا الجرم، هذا وقد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس، لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية، والذاتية إما طبيعية وإما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفنى ولا تتغير أبد الدهور وقد ذاع في الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعاً، لا يموتون كالإنسان الذي يموت، فإذا قيل: إن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت، والحي الناطق الغير الميت يسمى ملكاً فالأفلاك تسمى ملائكة، فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول على ثمانية، ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك، والحمل يقال على وجهين: حمل بشري، وهو أولي باسم الحمل كالحجر المحمول على ظهر الإنسان، وحمل طبيعي، كقولنا الماء محمول على الأرض، والنار على الهواء، والمعنى هو الحمل الطبيعي، لا الأول وقوله (يومئذ) والساعة والقيامة، فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة ألحد جعل الوعد والوعيد وأشباهها إلى ذلك الوقت [١].

هذه بعض أمثلة للتفسير الفلسفي، قد استند أصحابها إلى النظريات الفلسفية، وكانت بمثابة أصول التفسير عندهم، مع تباين ما بينهما وبين أصول التفسير التي اعتمد عليها علماء التفسير، لأن الفلاسفة القدامى اعتبروا القرآن رموزاً رمز بها النبي صلى الله عليه وسلم لحقائق تدق عن أفهام العامة.

وهذه دعوى بلا علم، إذ ما كان الله تعالى لينزل وحيه رموزاً لا تفهم إلا عن طريق نظريات الفلسفة التي هي نتاج الفكر البشري، والتي اعتمد كثير منها على الخيال والتخرص.

ولذا قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)[٢] والنبي قد بين البيان التام لأمته، ولم يكن ما أنزل ألغازاً ورموزاً يفهمها الخاصة ممن تعاطي علم الفلسفة، بل القرآن سهل ميسر واضح المراد، ممتد الاعتبار، قال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ) [٣] وقوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) [٤] فدعوى الرمزية في الوحي دعوى لا مستند لها، لا من نقل ولا عقل، بل هو ما يقتضيه النظريات الفلسفية، ولذا كان هذا التفسير بهذه الطريقة تفسيراً بدعياً منحرفاً عن الأصول التي فسر بها الصحابة فمن بعدهم القرآن العظيم.

---

(١) انظر : رسائل ابن سينا ص ١٢٨ ، ١٢٩.

(٢) سورة النحل / ٤٤.

(٣) سورة النحل / ٨٩.

(٤) سورة القمر / ١٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأياً ما كان فلا يوجد فليسوف من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة في عقولهم ألف تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، فكل ما وجد لهم في ذلك لا يعدوا بعض أفهام قرآنية مفرقة في كتبهم التي ألفوها في الفلسفة.

وهذا التفسير فيه وجه شبه من التفسير الإشاري الذي قبله، وذلك في دعوى الرمزية، غير أن الإشارية يرون الرمزية في قواعد التفسير، وهؤلاء الفلاسفة يرون أن الوحي هو الرمزية.

وهناك من العلماء الذين تعاطوا علم الفلسفة، وقد حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين، ولكنهم لم يوفقوا، وذلك لتباين ما بين الأصلين، إذ أصول الدين أو أصول التفسير أدلة يقينية، وأما الفلسفات فأصولها ظنية أو وهمية.

وهناك من العلماء من تعاطى علم الفلسفة، وقد بذل مجهوداً كبيراً في الرد على أصول الفلسفة، وتفنيد نظرياتها، وذلك كما وقع من الفخر الرازي في تفسيره [1]، غير أن تفسيره يوجد فيه مسحة فلسفية لكنها ليست رمزية.

ولا يفهم من هذا العرض رد كل ما يتعلق بالفلسفة قديماً وحديثاً، إذ يوجد فيها جوانب يمكن الاستفادة منها، في مناحي كثيرة من حياة البشر إنما المردود منها أو الذي لا يصلح أن يكون آلة في فهم وتبيان الوحي هو ما كان مستنده نظريات فلسفية أو اصطلاحات رمزية، وذلك لوجود أصول يقينية متفق عليها يفهم بها القرآن، وهذه الأصول من الوحي.

---

(١) انظر على سبيل المثال تفسيره الكبير/ م/٤ج٧ص١٢١، ١٣٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن التفاسير المنحرفة بعض ما يسمى بالتفسير العلمي، وإن كانت هذه التسمية فيها تجاوز، إذ الأولى أن يقال: الإعجاز العلمي في بعض آي القرآن، وهي الإشارات التي جاءت في سور القرآن، للتدليل على شمولية القرآن في ذكر أصول المعارف التي لا تنحصر، لأنه الكتاب الذي خص بمقومات الخلود والاستمرارية في العطاء، غير أنه قد مدح بعض هذه العلوم لنفعها للخلق بالإشارة إليها. مثل علم النجوم للاهتداء بها، قال تعالى (وبالنجم هم يهتدون)[1] واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وغير ذلك من العلوم التي فيها منافع للناس.

وهذه العلوم لم تسق في إشارات القرآن، لبيان أنها مقصودة لذاتها وإنما جاءت في سوق ذكر هدايات القرآن في إقامة الحجج في لزوم ألوهية الله تعالى، والتذكير بأفعاله على كونه رباً خالقاً، وإنعامه على جميع خلقه بمنحه نعمه التي لا تعد ولا تحصى، امتناناً منه وتفضلاً حتى يحصل منهم الشكر والثناء الذي يستحقه سبحانه، وقد ذم أخرى لضررها وذلك مثل علم العيافة، والزجل والكهانة وخط الرمل والطيرة، وغير ذلك من العلوم التي أبطل الباطل منها.

ولذا كان أنصار فكرة التفسير العلمي ينظرون إلى ذلك على أنه وجه من وجوه إعجاز القرآن، وبيان إصلاحه للحياة وتمشيه معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها.

غير أن منهم من بالغ، ووقع في الغلو، ومنهم من توغل برفق وأبرز هذا الوجه الإعجازي مستنداً إلى أصول التفسير المتفق عليها بين

---

(١) النحل / ١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السلف والخلف مبيناً اتفاق هذه الحقيقة العلمية والمعرفية، لذلك الأصل الذي أشار إليه القرآن، وقد تكون تلك الإشارة قبل ظهور تلك الحقيقة العلمية للخلق، هذا اللون من التفسير قد وقع الخلاف فيه قديماً وحديثاً فمن العلماء من قبله، ومنهم من رده وصد عنه.

ولكل من الفريقين أدلته التي يحتج بها على ما ذهب إليه، وإن كانت أدلة الذين لا يرون هذا اللون من التفسير، أقرب إلى الصواب من أدلة المثبتين له، المغالين فيه.

فمن العلماء المتقدمين الذين يرون أن القرآن فيه علم الأولين والآخرين الإمام الغزالي أبو حامد، فهو يرى أن سائر العلوم قد تشعبت من علوم القرآن.

وذكر من ذلك علم الطب والنجوم وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه وعلم السحر وعلم الطلسمات، وغير ذلك ثم يقول: ووراء ما عددته علوم أخرى، يعلم تراجمها، ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها، بل أقول: ظهر بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أنّ في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، واندثرت وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود الآن، قلت يوجد في هذه الأعضاء على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين فإن الإمكان في حق الآمي محدود، والإمكان في حق الملك محدود إلى غاية من النقصان،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه [١] واندثرت.

إلى أن يقول هذا الإمام الجليل: ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ــ يريد أفعال الله تعالى في خلقه ــ ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها... فتفكر في القرآن، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين [٢].

وقد جاء بعده الجلال السيوطي، وقد نحا نحو الإمام الغزالي في ما ذهب إليه من التفسير العلمي [٣].

وقد أشار إلى ما ذكره أبو الفضل المرسي في تفسيره من جمع القرآن لعلوم الأولين والآخرين [٤].

ويقول الإمام السيوطي بعد: وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شئ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى، إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات [٥].

هذه النزعة في تفسير القرآن كانت صريحة عند الإمام الغزالي وابن عربي والمرسي والسيوطي وغيرهم من العلماء المتقدمين، وقد ظهرت هذه الفكرة ظهوراً جلياً في تفسير الفخر الرازي [٦].

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج٣ / ١٣٥ ، وكتابه: جواهر القرآن ص ٣١، ٣٢.

(٢) نفس المصدر /٣٢ ، ٣٤.

(٣) الإتقان ج٢ / ١٢٦.

(٤) الإتقان ج ٢ / ١٢٦ ، ١٢٨.

(٥) الإتقان ج٢ / ١٢٩.

(٦) انظر تفسيره الكبير على سبيل المثال م / ٤ / جـ ٨ ص ٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم وجد بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن، وقد راجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجاً كبيراً، ووجدت مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع.

وأما من أنكر هذا اللون من التفسير قديماً، فأبرزهم الإمام الشاطبي الذي تصدى لهذا التفسير بالرد والتفنيد.

وخلاصة ردّه على هذا اللون من التفسير أنه قال: إن السلف الصالح ــ من الصحابة والتابعين ومن يليهم ــ كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شئ من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلي ذلك لم يكن قد دل على أنه غير موجود عندهم وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشئ مما زعموا.

نعم تضمن علوماً من جنس علوم العرب، وما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولوا الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس.... [1].

ثم أخذ الإمام الشاطبي يفند أدلة المثبتين لهذا اللون من التفسير فقال: إن ما روى من آثار من أن القرآن فيه علوم الأولين والآخرين وغيره مما نقل عن بعض الصحابة لم يثبت، ولا دليل فيها على ما ادعوا، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما لا يقتضيه واستدلالهم بقوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شئ) [2] يقول في بيان المقصود بالكتاب

---

(١) الموافقات للإمام الشاطبي ج٢ / ٧٩ ، ٨٠.

(٢) سورة الأنعام /٣٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هنا: أنه اللوح المحفوظ لم يذكر السلف فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية [1] ثم ذكر ما يجب أن يستعان به في فهم القرآن فقال: ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كلام يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل على علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق[2].

هذه وجهة نظر النافين لهذا اللون من التفسير، وذلك أن ذكر جميع العلوم وبيان جزئياتها سواء كانت حقيقة علمية أو نظرية، ليس من القرآن وهداياته، والسلف الذين أخذ عنهم التفسير وعلوم القرآن وأصول التفسير في فهم القرآن، لم يذكر عنهم مثل هذه العلوم في تفسير القرآن.

وهم أعلم وأعرف الناس بما أنزله الله تعالى، وبما أودع في القرآن من علوم.

والذي يفسر القرآن على غير منهجهم الذي ساروا عليه فقد وقع في الخطأ، لأنه عدل عن طريقهم في التفسير، ومال إلى طريق أخرى غير سديدة.

هذه هي حال القدماء تجاه هذا اللون من التفسير، بين ناف له ومثبت، ويبدو أن حال المتأخرين أشد اختلافاً وتوسعاً فيه، وذلك بسبب الحالة التي وصلت إليها الأمة الإسلامية وهو التأخر التقني، لوجود موانع داخل الأمة منعتها من الوصول إلى هذه التقنية، وكذلك وجد موانع خارجية، قام على إيجادها أعداء تقدم هذه الأمة، وإن كان أصول العلوم قد أخذوها من علماء هذه الأمة، ومن

---

(١) الموافقات ج٢ / ٨١.

(٢) نفس المصدر / ج / ٨١ ، ٨٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مؤلفاتهم، في علوم الكون والحياة لهذا وغيره أراد بعض من شعر بالنقص المادي في حياة المسلمين أن يظهر أن القرآن الكريم قد سبق بذكر هذه العلوم الحديثة في ثنايا آياته وقد غالوا في هذا غلواً كبيراً[1]، وبعضهم لم يفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية المتغيرة [2] وبعض آخر حاول مطاوعة الآيات لبعض هذه العلوم [3] وقد أخرجوا القرآن بهذا عن مقاصده وغايته وهداياته التي أنزل من أجلها.

وقليل من هؤلاء المتأخرين من ضبط هذا اللون، بذكر أقوال المفسرين القدماء ثم يتلو ذلك بذكر ما أشارت إليه الآية من علم حديث ثم يذكر جزئيات ذلك العلم وإن كان القرآن لم يذكر تلك الجزئيات، ولكن المتناول لهذا العلم يركز على تلك الجزئيات، ويندهش لذلك السامع أو القارئ، ويترك الكل ما سيقت الآية لأجله من هداية الخلق، في أي نوع من تلك الهدايات، لذا كان القرآن يكتفي بالإشارة والتلميح دون التفصيل، بل ترك للخلق معرفة التفصيل.

وأيّاً ما كان توجيهات أولئك الذين يتناولون هذا اللون من التفسير وإن كان في عرف المفسرين ليس بتفسير، بل هو وجه من وجوه إعجاز القرآن التي لا تتناهى.

فإن المتأمل لاتجاهات كل من النافين والمثبتين لهذا اللون من التفسير قديماً وحديثاً يجد أن معهم الصواب في جانب، وقد جانبهم من جانب آخر.

---

(١) كما هو شأن الشيخ طنطاوي جوهر، انظر التفسير والمفسرون ج٢ / ٥٠٥.

(٢) كما هو شأن الدكتور عبد العزيز إسماعيل ، الطبيب المعروف ، انظر التفسير والمفسرون ج٢ /٥٠٢.

(٣) نفس المصدر ج٢ / ٥٠٣ ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالمثبتون له يرون استحالة أن لا يتضمن الكتاب الخالد لجميع العلوم، علم ذلك من علمه وجهله من جهله، ولأنه الكتاب الجامع لخيري الدنيا والآخرة.

والنافون له يرون أن القرآن العظيم نزل بمقاصد كبرى، وهدايات عظمى، وبينها بياناً تاماً، وأولها إثبات التوحيد لله تعالى، والعقيدة الصحيحة، وإثبات ألوهيته على العالمين، وتزييف العقائد الباطلة كلها وبيان اختصاصه واستحقاقه تعالى لهذه الأسماء والصفات (هل تعلم له سمياً) [1]، وتلك العبادة.

وهذا المقصد من أسمى مقاصد القرآن، لتعلقه بالله تعالى الخالق لكل شئ.

ومقصد آخر للقرآن وهداياته في بيان ما يتعلق بأفعال المكلفين من الأحكام التشريعية التي تنظم حياة الأحياء على أكمل وجه، وتوصلهم لتحقيق المصالح التي لا يمكن تحقيقها إلا بهذا النظام المبني على العدل والإحسان، ومقصد ثالث وهو ذكر نهايات الخلق وأفعالهم، وبيان ما يترتب على أفعالهم من خير أو شر، وذكر نهاية النهايات القيامة وما فيها من أهوال لمجازاة الخلق بعد الحساب.

ويلزم ذلك بعث النبيين والمرسلين لبيان ذلك وتوضيحه و إقامة الحجة على أن ما جاءوا به هو الحق الواجب اتباعه، إذ كل ذلك طريقه الوحي لا العقل، وإنما العقل واجبه إدراك كل ذلك.

وهناك هدايات كثيرة تتعلق بالمعاش والمعاد تتفرع عن هذه الهدايات الكبرى.

---

(١) سورة مريم / ٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما سوى ذلك من العلوم المتعلقة بالكون والخلق، من حيث الإتقان والإبداع، فقد أشار إليها القرآن في سياق الهدايات التي نزل من أجلها، وليس من غاية القرآن ذكر هذه العلوم وتفصيلاتها وجزئياتها فالنفي مطلقاً ليس صواباً، والإثبات مطلقاً ليس صواباً، والخير في الاعتدال فكل ما لم تساعد عليه عموم لغة القرآن ولا يدخل في مقاصد التشريع، فإنه مما لا فائدة فيه، وما ينبغي أن يضيع العمر في تعلمه أما ما لا تنبوا عنه اللغة ويدخل في مقاصد الشريعة، ولو بوجه ما، فلا يوجد مانع من إضافة هذا العلم للقرآن الكريم، ومنه ما يتعلق بالنظر في مصنوعات الله تعالى، وذلك للتدبر والاعتبار بتقوية الإيمان، وحصول اليقين، وزيادة الفهم، وتنوير البصيرة، فمثلاً قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) [1]

وقوله (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب)[2] فإن هذا ونظيره يشير إلى علم الهندسة، إذ قد استنتجوا من الآية الثانية أن الشكل المثلث لا ظل له.

والذي يتأمل ظاهر الآية وما سيقت من أجله، وسياق الآيات التي قبل وبعد الآية يجد أنها سيقت في الأولى لبيان كمال القدرة وكمال ربوبيته سبحانه في الخلق، وأن من هذا شأنه يجب أن يعبد وحده ولا يشرك معه أحد في العبادة، وإن ما سواه تعالى مخلوق، والمخلوق لا يعبد بل يعبد خالقه.

وتركيب الآية بصورة هذا المثل، والإشارة فيه إلى هذا العلم، أو التلميح إليه، وإن كان قد سيقت لبيان مقصود عقدي، للعمل بموجبه يدل على وجه

---

(١) سورة الرعد / ١٧.

(٢) سورة المرسلات /٣٠ ، ٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإعجاز، فالآية سيقت لإثبات العبادة لله وحده وجاءت في قالب يشير إلى علم من العلوم، ولم تسق أصالة له.

ولا ريب أن المكلف مطالب بتفهم وتعلم ذلك المقصود الذي سيقت الآية من أجله، والعمل به، والذي أشير إليه أو لمح له، يقوم به البعض ليكون عوناً واعتباراً للمقصود الأول، ودليل قاطع على صدقه المطلق وهذا قانون مستقيم في كل آي القرآن التي فيها إشارات وتلميحات للعلوم التي ليس لها تعلق بعمل القلوب والجوارح.

والآية الثانية جاءت في سياق إثبات عذاب الله تعالى للمكذبين بيوم القيامة، وقد دلل على أحقية العذاب لهم، وذكر حالاً من العذاب في النار لبعضهم، قد جاء بهذه الصورة التي هي ثلاث شعب، وقد نص على عدم الظل لهذه الحالة، وذلك إشارة إلى علم المثلثات، وجمالة البناء على شكل مثلث، بأنه لا يكون له ظل، وهذا وجه الإعجاز في مجئ الآية بهذه الصورة، ولا ريب أن الآية ما سيقت أصالة لهذا، وإنما لبيان عذاب المكذبين وأنهم في حمم من النار، لا ظل فيها، وهو البرد، فهم في لهب حار مستمر.

وهكذا يقال في قوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) [1] الآية سيقت للتدليل على البعث والنشور، بإثبات بيان خلق الله وإتقانه، فخلق هذه الأجرام العلوية بهذا الإحكام دليل على جواز إعادة الخلق مرة أخرى، بل هو أهون، وقد أخذ أهل الهيئة بإشارات الآية على علم الهيئة، والآية لم تسق له أصالة.

---

(١) سورة ق / ٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن الصورة التي كان يراد إيصالها للخلق في بيان كمال القدرة على إعادة الخلق جيء بها بهذا التركيب، وبالإشارة استنبط علم الهيئة وتفاصيله عند أهله، وكذا قوله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)[1] وقوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)[2] ونظير ذلك، مما استنبطوا منه علم الطب، الذي مداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك لا يكون إلا باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة.

والآية في مثل هذا قد سيقت في ذم كل من الإسراف والتقتير وأن المطلوب هو الاعتدال، لسلامة البدن والنفس، وهو من الكليات التي جاء بها الدين، وهو حفظ الأبدان، وحفظ الأعراض والنفوس، وحفظ الأموال وحفظ العقول، وحفظ الأديان.

تلك هي طريقة القرآن في نظمه، فإنه يشير إلى العلوم التي لا تتعلق بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، في سياق ذكر المقاصد المتعلقة بأعمال القلوب والجوارح، التي هي غاية نزول القرآن العظيم، إذ القرآن هو الهادي إلى العلم المطلوب لذاته، وهو السعادة في الآخرة، ولذة النظر إلى وجه الله تعالى، وهو الوسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالعلم، والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.

فالعلم الذي يتعلق بأعمال القلب والجوارح، هو هدايات القرآن ومقاصده وأولها هداية الخلق إلى معرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته، ليدعوه ويعبدوه وحده، والطريق الموصل إلى ذلك، والعلم بالآخرة والعمل الصالح

---

(١) سورة الأعراف / ٣١.

(٢) سورة الفرقان / ٦٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموصل إلى ثواب الله تعالى، والعلوم المعينة على ذلك، وهذا الذي نص عليه أصالة، ثم إشارة إلى العلوم التي بها عمارة الكون، والإفادة مما خلق الله تعالى للخلق في السموات والأرض ثم العلوم التي يتقدم بها الخلق مع حركة الكون، كل هذا جاءت الإشارة به في سياق صور الهدايات الكبرى، سواء كان من العلوم التي جدت أو تجد في المستقبل إلى يوم القيامة، للفت الأنظار إلى المبدع لهذا الكون وإلى توحيده بالربوبية والألوهية وبهذا يمكن الجمع بين صواب كل من الطريقتين.

أما ما كان من شأن بعض المحدثين المتحمسين المبالغين في هذه الطريقة التي يدعون فيها التوفيق بين القرآن والعلم الحديث، وذلك باستنطاق النص القرآني ما لا تحتمله ألفاظه وجمله، أولى عنق الأدلة حتى تتفق مع النظريات الحديثة، أو التعويل على آراء العلماء وافتراضاتهم المتناقضة، أو التي يصعب التحقق من صحتها، أو غير ذلك من المبالغات التي يقع فيها أهل هذا الشأن مما يجعل التفسير، أو استخراج وجه الإعجاز من النص القرآني بطريقة منحرفة ذات ميل عما كان عليه علماء التفسير، من وجوب الالتزام بأصول التفسير التي يفسر بها القرآن، فانتفسير بهذه المبالغات، أو مجرد النظريات العلمية، التي لم يتحقق صدقها، هو التفسير المنحرف، وينبغي رده وتصحيحه، حتى لا يصبح أمراً مسلماً به، مع طول الأمد، ويصبح خطراً على الإيمان، فلم يأت القرآن ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي، كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله.

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها [1].

فالقرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة، لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب، وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير.

إذ التأمل في آيات الخالق التي أودعها في الكون، وفي أنفسنا توصل إلى الدليل القاطع على صدقها المطلق.

وبهذا العرض أمكن بفضل الله تعالى الجمع بين قولي العلماء في التفسير العلمي، والتوفيق بين وجهتي نظرهم، والله ولي التوفيق.

وهذه بعض الكتب التي ألفت في هذا اللون من التفسير حديثاً.

١ــ الجواهر في تفسير القرآن الكريم، للشيخ طنطاوي جوهر المتوفي سنة ١٣٥٨هـ.

٢ــ القرآن والعلوم العصرية، للمؤلف السابق.

٣ــ التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، لحنفي أحمد.

---

(١) ظلال القرآن للشيخ سيد قطب بتصرف ج١ / ١٨١ ، ١٨٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤ــ كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية، للطبيب البارع، محمد بن أحمد الاسكندراني.

وكل هذه الكتب والمؤلفات وغيرها متضمنة لأبحاث علمية مستفيضة وهذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار ونظريات الشرق والغرب في العصر الحديث، يذكرها المؤلف في بيان تفسيره العلمي، أو بيان وجه إعجاز القرآن العلمي، ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة، فإذا كان القرآن قد نبه وأشار إلى هذه العلوم، عن طريق تطوير هداياته بتراكيب مختلفة، فإنه لم يذكرها أصالة، وإنما هي داخلة في تبيان كل شئ، ولذا لم يذكر جزئياتها وتفصيلاتها، وترك للخلق إعمال الفكر بها، ومعرفة تفصيلاتها حتى يستفيدوا منها، وبالتأمل فيها يدركون كمال القدرة والعلم للخالق سبحانه، وأنه أتقن كل شئ خلقه ثم هدى.

ومن التفاسير المنحرفة ما يسمى بالتفسير الإلحادي في هذا العصر، فلقد منى الإسلام من بداية ظهوره بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد.

ومن أهم هذه الوسائل في الكيد، أنهم جعلوا تأويل القرآن مدخلاً في صرف ما يدل عليه النص القرآني من حكم بوجوه أخرى تتنافى مع هداية القرآن في إحكام أحكامه، وقد كان هذا البلاء في أحدث عصور الإسلام، بل ما خلا عصر من عصوره إلا وجد فيه من يكيد له، وذلك عن طريق تأويل نصوصه على غير تأويلها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة، وقد رفضها بكل إباء من حفظ الله تعالى عليهم دينهم وعقولهم.

الباعث على هذا اللون من التفسير: —

لقد اندفع أولئك المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائغة للقرآن بعوامل مختلفة:

فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله تعالى سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم بالسفه والغفلة، ثم طلع على الناس بجديده في تفسير كتاب الله تعالى، وهو جديد لا تقره لغة القرآن التي نزل بها، ولا يقوم على أصل من الدين.

ومنهم من تلقى من علم التفسير والعلوم الشرعية واللغوية حظاً يسيراً ونصيباً قليلاً، لا يرقى به إلى مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسى أنه قل في علم اللغة نصيبه وخف في حكم الشريعة وزنه، ولا وجود لعلم التفسير وأدواته عنده، ثم راح ينظر في كتاب الله تعالى نظرة حرة لا تتقيد بأي أصل من أصول التفسير. (١)

أو أنه قرأ كتاباً من كتب التفسير أو كتابين واعتقد أنه بلغ من علم التفسير ما يجعله من العلماء، ثم أخذ يهذي بأفهام فاسدة للعامة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة والدين.

---

(١) يراجع في هذا الحصون المنيعة للدفاع عن الشريعة.

وهو ردود على أفكار منحرفة ، للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين / ٢٦٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر على عقيدة معروفة، ولكن لعبت برأسه الغواية وتسلطت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلى القرآن، وهو يحمل في قلبه ورأسه أمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما يتفق معها، تأويلاً لا يقره العقل، ولا يرضاه الدين.

فهؤلاء وغيرهم خاضوا في تفسير القرآن على عماية، فلم يراعوا في فهم القرآن قوانين فهمه وتفسيره، ولم يدخلوا إلى تفسير القرآن من باب السنة الصحيحة، وحسبوا بذلك أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر الذي يزعمونه، والرأي الطليق. ولقد قيض الله تعالى لهذا الدين رجالاً يدفعون عنه، وعن كتاب الله تعالى، تحريف المبطلين وتزوير الغالين، وانحراف المفكرين، وتعالم المتعالمين، الذين كثروا في هذا الزمان لا كثرهم الله، ولم يرعوا أصول العلوم وأدواتها، وإنما سطوا على كتاب الله تعالى سطو المتطفلين.

خلص الله تعالى المسلمين من شرهم وخبثهم وجهلهم، إذ القرآن الكريم له عرف خاص، ومعان معهودة، لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به.

ولا يجوز حمل القرآن على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي أو اللغوي أو غيرهما [1].

---

(١) بدائع الفوائد / ٢ / ٢٤٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أمثلة هذا اللون التفسيري المنحرف عن أصول علم أصول التفسير ما يزعم به صاحبه التجديد المزيف، وذلك لمسايرة العصر وتدعيماً لروح الإلحاد، ومجاراة لمن يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة في أحكامها وحدودها، فقد راح هذا المتعالم يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوى أصحابه، فحمل الأمر فيها على الإباحة، وجعل الأمر مفوضاً إلى رأى ولي الأمر وحده وهذا الأسلوب اللولبي فيما أبداه هذا القائل المائل مفضوح لكل أحد، وتظهر نية صاحبه جلية، وبيان فكره المنحرف.

فهذا القائل يقول تحت عنوان عريض [التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي] (١).

يقول بدعوى الهدوء بتعالم الفاشلين في التحصيل بله التحقيق:

يبقى بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذي سنثيره فيها، ليبحث في هدوء وسكون، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبة التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد وسيكون هذا بإعادة النظر في النصوص التي وردت فيها تلك الحدود لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة. -

سأقتصر في ذلك ــ الآن ــ على ذكر ما ورد في تلك الحدود من النصوص القرآنية وذلك قوله تعالى في حد السرقة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم) (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) (٢)

---

(١) التفسير والمفسرون نقلاً عن مقال منشور جـ ٢ /٥٢٨.

(٢) المائدة / ٣٨ ، ٣٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول هذا القائل في هذا النص القرآني الصريح القاطع في حكمه، فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة، وهو قوله (فاقطعوا) فنجعله للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فيها، مثل الأمر في قوله تعالى (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)[1] فلا يكون قطع يد السارق حداً مفروضاً، لا يجوز العدول عنه في بعض الحالات، بل يكون القطع في السرقة هو أقصى عقوبة فيها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبة أخرى رادعة، ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولي الأمر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان.

وهكذا الأمر في حد الزنا (فاجلدوا) [2] سواء أكان رجماً أو جلداً، مع مراعاة أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج، لعدم النص عليه في القرآن الكريم.

ثم يقول: وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي.

مع أنا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصاً ولا ألغينا حداً، وإنما وسعنا الأمر توسعاً يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عرف عنها من إيثار التيسير على التعسير، والتخفيف على التشديد، وقد مشى على هذا التأويل في كل ما يتعلق بأوامر الحدود، وقد تبعه في

---

(١) النور / ٣.

(٢) الأعراف / ٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك من في قلبه هوى ومرض وأصبح يدافع وينافح عن هذه الطريقة المنحرفة في تفسير النصوص القرآنية المتعلقة بالحدود.

ويلاحظ على مثل هؤلاء المنحرفين فكرياً وعلمياً أمرين:

الأول: جهلهم العريض بما يسمى لدى العلماء بعلم الأصول وأحكام الجمل من ألفاظها.

إذ لو كان القائل بهذا التأويل المنحرف عالماً بهذا العلم، لعلم متى يكون الأمر للوجوب ومتى يكون للإباحة، وأنه لا يمكن للأمر الذي للوجوب أن يكون في بعض صوره للإباحة وبعضها الآخر للوجوب بحجة توسيع دائرة الأمر.

وهذا الفهم للأمر لم يقل به أحد من الأولين، وليس هو من مدلول الأمر، وسوف يترتب على هذا القول تطبيق الأمر بحسب الأهواء والأشخاص، كما وقع لليهود قبل، فقد كانوا يقيمون الحد على الضعيف ويؤلونه مع القوي والغني.

الثاني: شعور هؤلاء المؤولة بالنقص والهوان، لجهلهم بحقيقة ما ينتمون إليه من حق مبني على أسس العدل، وانبهارهم ودهشتهم لما وصل إليه غير المسلمين من نظم وإدارة، وقد ظنوا أن إقامة تلك الحدود بالضوابط الشرعية هو السبب في التخلف المدني للمسلمين، كما زين لهم أساتذتهم، ولذا نجد على ألسنتهم تلك الجملة التي أريد بها باطل وهي: موافقة العصر ومواكبة الحضارة، والتقدم والرقي، وغير ذلك من الجمل الواسعة المعاني والتي لا علاقة لها بمدلول الألفاظ، وهي جمل يرددها كثير منهم لإيهام الناس بأن ما قاله حق وصواب.

إن أحكام الدين الإسلامي مبنية على العدل والإحسان، فالحكم المأمور به عدل لا ظلم فيه، وتطبيقه على الوجه المأمور به، بلا تجاوز هو الإحسان، والله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعالى هو الذي حكم بهذا، وحكمه حق، قال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) [1] والإسلام بأحكامه التي تضمنها القرآن والسنة مصلح لكل زمان ومكان ولا يقال: صالح، إذ هو صالح في نفسه ولا يحتاج إلى مثل هذه الشهادة من غيره بل غيره محتاج لشهادته، كما هو مفهوم قوله تعالىَ (مصدقاً لما معهم) [2] فهو يصدق ما معهم من الكتب والوحي.

فهم في حاجة إلى من يحكم لهم بصدق ما معهم، وليس القرآن محتاجاً لغيره في كونه صدقاً وصادقاً.

وبالجملة فهذا التأويل الذي ذهب إليه هؤلاء المؤولة لنصوص القرآن الكريم، هو إلحاد وميل، وانحراف عن الحق والصواب، ومرض وهوى في القلوب والنفوس التي ليست بسوية، وهي نظير نفوس اليهود الذين كانوا يؤولون ويحرفون كلام الله تعالى من بعد مواضعه، بالتأويل الباطل على نحو ما أولوا في النصوص السابقة، وقد تناول هؤلاء المؤولة المحدثون النصوص القرآنية المتعلقة بأحوال المكلفين بالتأويل بالباطل على نحو ما أولوا في النصوص السابقة، وذلك مثل ما أولوا تعدد الزوجات تأويلاً باطلاً، وكذلك التسري والطلاق وغير ذلك من النصوص المتعلقة بأحوال المكلفين.

فبعض المحدثين المولعين بثقافة الآخر ونظمه الاجتماعية يرى منع تعدد الزوجات مدعياً أن القرآن يشير إلى هذا بقوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين

---

(١) النحل / ٩٠.

(٢) البقرة / ٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النساء ولو حرصتم) [1] فهذه الآية في زعمه تنفي استطاعة العدل بين النساء، والعدل شرط في التعدد، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فالتعدد ممنوع لعدم استطاعة العدل.

وهذا ميل وانحراف عن المعنى المقصود من الآية هنا، فالآية صدرت بالنفي لكنها فرعت على النفي، والتفريع على النفي بقوله (فلا تميلوا كل الميل) يدل على أن جهة النفي غير جهة الإثبات، وأن جهة النفي هنا هو القلب الذي لا يملكه المعدد، والعدل مشروط فيما هو في الإمكان، فالعدل المطلوب في التعدد هو العدل الظاهر الممكن، أما عدل القلب فلعدم ملكه، لا يمكن به العدل، ولكن لا يمال كل الميل.

ولذا ورد في الأثر قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) [2] فالتعدد مباح بشرط العدل فيما يملك أن يعدل فيه.

وقد تعدى تأويل هؤلاء المؤولة بهذه الطريقة المنحرفة إلى المعاملات مثل الربا والزكاة والزروع، ومصارف الزكاة، فقد فسروا المقصود بهذه الأشياء تفسيراً باطلاً فاسداً.

وبالجملة فهذا التفسير وما شابهه لنصوص القرآن والسنة، هو تأويل وتفسير منحرف باطل، وذلك لعدم استناده لأصول التفسير الواجب الأخذ بها ولعدم رجوعه إلى لغة أو شرع، بل هو مخالف لكل أصل من أصول الدين وسببه مواكبة العصر، وموافقة الأهواء المريضة.

---

(١) النساء. ١٢٩.

(٢) الأثر. سنن الإمام الترمذي م ٣ ، كتاب النكاح حديث رقم ١١٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولينظر أولئك المؤولة المنحرفة إلى واقع وحال هؤلاء الذين فتنوا بنظمهم الاجتماعية التي ترتكز على الحرية الشخصية المطلقة، وذلك بإشباع الرغبة دون نظر إلى عواقب ذلك، وأصبحت تلك المجتمعات تعاني التفكك الاجتماعي والانهيار الخلقي، والعقلاء منهم اليوم يحاولون الخروج من هذه الظلمات التي وقع فيها المجتمع المتحضر، كما أطلق عليه ذلك.

فتلك المجتمعات التي يزعم المؤولة مواكبتهم فيما يزعم من حضارة مجتمعات مريضة تحتاج إلى دواء يزيل عنها تلك الأدواء، ولا دواء إلا بنظم الإسلام التي جاءت مفصلة مبينة في نصوص القرآن والسنة، لأن فيهما الأحكام التي أساسها العدل والاحسان.

فهذه التفاسير والمفاهيم التي قال بها هؤلاء المؤولة لنصوص القرآن، هي تفاسير منحرفة ومائلة عن الحق الذي دلت عليه النصوص.

إذ الواجب على كل من يتعاطى علم تفسير القرآن ونصوص السنة أن يكون عالماً بعلم الميزان الذي يفهم به النصوص القرآنية فهماً صحيحاً، وهو العلم المتفق عليه من لدن الصحابة رضى الله عنهم إلى يوم الدين، والتوسع في معاني النصوص يكون بحسب توسعة النص ووضعه، وليس التوسعة على حسب الأهواء، أو مواكبة العصر أو التحضر.

وبهذا البيان المتقدم يعلم أن كل تفسير لا يبنى على تلك القواعد الأصولية في تفسير القرآن، وهي قواعد يقينية دلائلها القرآن الكريم نفسه، فهو تفسير منحرف مائل عن الصواب، يرد على قائله ويلحقه الإثم، لأنه يدخل تحت التفسير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمجرد الرأي والهوى، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) [1].

الطبقة الثالثة من المفسرين بالرأي: –

هذه الطبقة من المفسرين طريقتهم ومنهجهم هو تجديد وتوسيع هدايات القرآن الكبرى المتعلقة بالإنسان والكون، وقد أشار وألمح إليه بعض العلماء القدماء، والمحدثون من المفسرين جددوا ووسعوا دائرة هذا اللون من التفسير، الذي يطلق عليه – التفسير الأدبي والنفسي والاجتماعي، بطريقة سهلة ميسرة، وهذا التفسير يتناول النصوص القرآنية تناولاً يقوم أولاً وقبل كل شئ على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ.

ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع ونظم العمران وهداية الناس إلى ما في القرآن من خير الدنيا وخير الآخرة.

وممن أشار من القدماء إلى هذا اللون من التفسير الجاحظ من المعتزلة، وذلك بحديثه عن قيمة البيان القرآني، ونعمة الله تعالى في تقويم اللسان، فيقول: وسأل الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة على حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في

---

(١) خرجه الإمام الترمذي ، كتاب التفسير جـ ٥ / ١٨٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيانه (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) [1]. ثم قال: وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، واستراحته إلى كل شغب وينبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند، وكل محتال مكايد، حيث خبرنا بقوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) [2].

وقال موسى عليه السلام (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني) [3] وقال (ويضيق صدري ولا ينطلق لساني) [4] رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة [5].

وهو بهذه ينبه إلى الطريقة البيانية ويمهد لما يسمى بالتفسير الأدبي الذي هو جماع علوم العربية، وذلك للوصول إلى الدقة والوضوح في بيان المراد، وصور الجمال في النص لاستثارة المشاعر والوجدان وقد تفرع أو نتج عنه ما يسمى بالتفسير النفسي، وذلك بشرح النفس إلى ما تميل إليه وتقويم المعوج منها، وتصحيح المغلوط، أو ترهيبها أو ترغيبها، وبيان تنوع النفوس والميول، وما فطرت عليه، فيقول في شرح نفسيات العرب، وكيف عالجها القرآن: ثم قال الله تبارك وتعالى في باب آخر من صفة قريش والعرب (أم تأمرهم أحلامهم

---

(١) سورة طه / ٢٧.

(٢) سورة الزخرف / ٥٢.

(٣) سورة القصص / ٣٤

(٤) سورة الشعراء / ١٣.

(٥) البيان والتبين للجاحظ ج١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهذا)[1] وقال(فاعتبروا يا أولي الأبصار)[2] وقال (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) [3] وقال (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) [4].

وعلى هذا المذهب قال (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) [5] وقال الله تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) [6] قال: لأن مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهيم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد.

والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم [7].

ويقول في مقام الترهيب والترغيب: قال الله تبارك وتعالى (كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون) [8] وقال (في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة) [9] وقال (فأما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حساباً

---

(١) الطور / ٣٢.

(٢) الحشر / ٢.

(٣) الإسراء / ٤٨.

(٤) سورة إبراهيم / ٤٦.

(٥) القلم / ٥١.

(٦) سورة إبراهيم / ٤.

(٧) البيان والتبيين للجاحظ / ١ / ٧.

(٨) الانفطار / ١١ ، ١٢.

(٩) سورة عبس / ١٣ ، ١٤ ، ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسيراً) [١] وقال (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، فسوف يدعو ثبوراً، ويصلى سعيراً) [٢] وقال (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) [٣].

يقول الجاحظ: ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه تعالى علم أن كتابه المحفوظ نسخه أوكد وأبلغ في الإنذار والتحذير، وأهيب في الصدور [٤] التي كانت في وزن ما يكون من جميع الأمم إلى أنبيائهم، ولذا قال تعالى (تشابهت قلوبهم)[٥] وقال (أتواصوا به) [٦] قال تعالى (وخضتم كالذي خاضوا) [٧] وكذلك النصوص التي تشير إلى حب الأرض التي نشأت عليها النفس، وقد فطرت على ذلك مثل قوله تعالى (قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) [٧] وقوله (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) [٨].

---

(١) سورة الانشقاق / ٧ ، ٨.

(٢) نفس السورة / ١٠ ، ١١.

(٣) سورة الإسراء / ١٤.

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ / ٦٢/١.

(٥) البقرة / ١١٨.

(٦) الذاريات / ٥٣.

(٧) التوبة / ٦٩.

(٨) البقرة / ٢٤٦.

(٩) النساء / ٦٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن الصور النفسية لدى العامة، جعل الله تعالى في طباع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته، فقال سبحانه (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشياطين) [١].

وهكذا يواصل الجاحظ بيان اللون النفسي في التفسير، ثم يتبع ذلك ببيان اللون الاجتماعي في بيئته وعصره، وهو يضئ بذلك ما حول النص القرآني بادئاً تحليل التركيب، وذلك كما في قوله تعالى (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) [٢].

وقد كان البيت مزوراً على وجه الدهر يأتونه رجالاً وركباناً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، وبشق الأنفس.

فهو يظهر من بيان النص القرآني فوائد الحياة الاجتماعية في المجتمع المدني في زيارة المسجد الحرام، والتعرف على مختلف المجتمعات الإسلامية للتواصل، ويواصل التفسير للنص القرآني ببيان اللون العلمي، وذلك بطريقة استخدام العلم في التعرف على دلالة الخلق على الخالق، ومن غير إقحام النص القرآني على نظريات علمية قابلة للتغير والتحول كل آن وحين، إذ هذه الطريقة المستخدمة من بعضهم هي فرض قسري لكتاب ديني على العلم، وتعريض الكتاب للنقض والتبديل وهو كتاب باق على مر الزمان، وهذه العلوم لها صفة التغير، ولن يعطي العلم كلمة أخيرة فاصلة في مسائله وقضاياه.

---

(١) الصافات / ٦٤ ، ٦٥.

(٢) سورة إبراهيم / ٣٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان موضوع التفسير العلمي الذي أشار إليه من النصوص، هو الإنسان لأن الإنسان، تتلاقى فيه ملامح مما في الكون، ولذا يطلق على الإنسان العالم الصغير، سليل العالم الكبير، وقد سخر لهذا الإنسان كل ما في الكون كما قال تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) [١] يقول الجاحظ في الإنسان: فجعلوه العالم الصغير، إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه، ألا ترى أن فيه طبائع الغضب والرضا، وآلة اليقين والشك، والاعتقاد والوقف، وفيه طبائع الفتنة والغباوة والسلامة والمكر، والنصيحة والغش والوفاء والغدر، والرياء والإخلاص، وما لا يحصى عدده، ولا يعرف حده [٢].

ويبين الجاحظ أن الإنسان الذي هذا شأنه، والذي على هذا القدر وبهذه القيمة، يعجز عن قدر الحيوان، فالإنسان عاجز عن درك ما أودعه الله تعالى في الحيوان، وعليه أن يتعرف على ما سهل الله تعالى له من الرفق العجيب في الصنعة مما ذلله تعالى لمناقيرها وأكعبها وكيف فتح له من باب المعرفة على ما هيأ له من الآلة، وقد أعطى كثيراً منه من الحسن اللطيف، والصنعة البديعة من غير تأديب وتثقيف، ومن غير تقويم وتلقين، وغير ذلك من الأمور التي يعجز عن الإحاطة بها (فتبارك الله أحسن الخالقين) [٣].

فهو يرى أن الإنسان ينعكس عليه ما في الوجود، ولكنه عاجز عما أتيح للحيوان من قدرات، وإذن فليكن هذا الحيوان مناط تأمله ومصدر درسه، ثم آية وعظه فالمعرفة عنده والعلم يجب أن يكونا في

---

(١) الجاثية / ١٣.

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ / ٢١٢/١ ، ٢١٤.

(٣) المؤمنون / ١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خدمة هذا الوجود، وفي تحديد مسلك الإنسان منه بالمعرفة تتكشف أسرار هذا الوجود، ويتكيف الإنسان منه بحيث يفيد لدنياه كما يفيد لأخرته، وبهذا يحقق الإنسان قيمته في الحياة.

فليكن الحيوان مناط تأمل الإنسان، ومصدر درسه، وآية وعظه إذ هو أقرب المخلوقات إليه، ولينظر إلى ضروب ما يجنى منها.

فالتفسير العلمي الذي أشار إليه، موضوعه ذلك الإنسان الذي هو العالم الصغير، للعالم الكبير ــ الكون ــ قال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (٤)، وبعد تأمل الإنسان نفسه وإبداع خلقه، فليتأمل ذلك الحيوان الذي هو انعكاس لذلك الإنسان.

وقد كان عدد من الأدباء غير الجاحظ قد أشاروا إلى ذلك، وكان ذلك بمثابة اللبنة الأولى للتفسير الأدبي الاجتماعي النفسي.

ثم جاء مجددوا هذا العصر واهتموا بهذا اللون من التفسير وجددوا وتوسعوا فيه توسعاً كبيراً، وكان على رأس هؤلاء الإمام محمد عبده.

فقد كان منهجه الأدبي الاجتماعي في تفسير القرآن، هو فهم كتاب الله تعالى من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا، وحياتهم الآخرة.

---

(١) الذاريات / ٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذلك لأنه كان يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله [١].

والإمام يتوجه باللوم إلى المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن وهو ما فيه من هداية وإرشاد.

وراحوا يتوسعون في نواح أخرى من ضروب المعاني، ووجوه النحو، وخلافات الفقه، وغير ذلك من المقاصد التي يرى الأستاذ الإمام أن الإكثار في مقصد منها يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي.

لذا فإنه يرى أن التفسير الحقيقي هو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل، والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله تعالى (هدى ورحمة) [٢] ونحوهما من الأوصاف. يقول الأستاذ الإمام: وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير [٣].

ولا يفهم من كلام الأستاذ السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلاً في تفسير القرآن، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة والحاجة.

---

(١) انظر تفسير المنار / / ١ / ١٧.

(٢) لقمان. ٣.

(٣) انظر تفسير المنار ج١ / ٢٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرى الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذي توزن به العقائد لتعرف قيمتها، ويقرر أنه يجب على من ينظر في القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة، فلا يجوز أن يؤول القرآن بما يشهد لعقيدة المفسر.

يقول الإمام: أريد أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لا أن يكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون وتاه فيه الضالون [١].

وبالجملة فإنه يرى أن الفهم الصحيح للقرآن هو: ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه.

فالذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر [٢].

وكان الإمام في تفسيره للمبهمات على طريقة الصحابة رضى الله عنهم فلم يتكلف في تفسيرها عن طريق الإسرائيليات، كما وقع ذلك لكثير من المفسرين.

فهو يقف من جميع مبهمات القرآن عند النص القطعي لا يتعداه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه [٣].

وذلك مثل تعرضه لسورة الفجر من قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد) [٤].

---

(١) انظر التفسير والمفسرون /٢ / ٥٥٦.

(٢) انظر تفسير المنار ج١ / ٢٧.

(٣) انظر تفسير المنار ج ١ / ٣٢٠.

(٤) الفجر / ٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول: وقد يروي المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله.

فإذا وقع إليك شئ من كتبهم، ونظرت في هذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه [1].

ولم يكد الإمام يمر بآية من القرآن يمكنه أن يأخذ منها علاجاً للأمراض الاجتماعية إلا أفاض في ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التي يتكلم عنها، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها.

كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يلقي به على أسماع المسلمين وغير المسلمين بأسلوب سهل ميسر، رجاء أن يعودوا إلى الصواب، ويثوبوا إلى الرشاد.

ولا ريب أن هذه الطريقة المتجددة في التفسير ببيان هدايات القرآن الكبرى والمتضمنة لألوان متعددة في البيان، هي الأجدر بالتناول والتوسع لنشر هدايات القرآن، وجذب الخلق إلى القرآن الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ما يؤخذ على بعض متبعي هذه الطريقة: —

هذه الطريقة في تفسير القرآن، هي الأقرب إلى معرفة المراد من إنزال القرآن الكريم العظيم، وذلك لاهتمام أصحابها ببيان هدايات القرآن ومقاصد نزوله وغاياته.

غير أنه يلاحظ على بعض أصحاب هذه الطريقة ما يلي:

---

(١) انظر تفسير جزء عم / ٧٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١) التعرض لبعض مبهمات القرآن بالتأويل، وإن أنكروا ذلك على المفسرين الذين تعرضوا لذلك ببيانها عن طريق الإسرائيليات أو بمجرد العقل مجاراة للعلم الحديث.

وذلك مثل التعرض لقوله تعالى (وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول) [١].

يقول في تفسير ذلك: إن الذي أصابهم هو داء الجدري والحصبة وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذي تحمل الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات.

فإذا اتصل بجسده دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن الميكروب لا يخرج عنها [٢].

فقد خالفوا في هذا طريقتهم في تفسير المبهمات في القرآن، إذ هذا خوض في تفصيلات وجزئيات ما أبهم من الطير، من أن ما جاءت

---

(١) سورة الفيل / ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦.

(٢) انظر: تفسير جزء عم / ١٥٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

به هو ميكروب أو جراثيم، والعربي الذي أنزل عليه القرآن إذا سمع هذه الآيات لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم، لذا فمثل هذا التفسير لا يشكر عليه.

(٢) وقد زعم بعض متبعي هذه الطريقة في التفسير أنه لا دليل على وجود الملائكة فهي عندهم شئ أودعه الله تعالى في النفوس، وينشأ عنه التنازع في الأمر بين الخير والشر، فإذا ترجح جانب الخير، فلا يبعد أن يسمى ملكاً، وإذا ترجح جانب الشر، فلا يبعد أن يسمى شيطاناً [١]، وهو مخالف لما عليه أهل السنة، وظاهر أدلة الكتاب والسنة في إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلقوا من نور.

(٣) موقفهم من السحر، فإنهم يخالفون فيه، ما عليه جمهور أهل السنة ويذهبون مذهب المعتزلة، من أن السحر لا حقيقة له، فهم يفسرون ما في قوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) [٢]، بأن المراد بهم هنا هو النمامون المقطعون لروابط الألفة، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم، وإنما جاءت العبارة ما في الآية، لأن الله عز وجل أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه ــ مثلاً ــ فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها [٣].

---

(١) انظر: تفسير المنار جـ١ / ١٦٧ ، ١٦٨.

(٢) سورة الفلق / ٤.

(٣) تفسير جزء عم / ١٨١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتفريعاً لهذه القاعدة ردوا الروايات الصحيحة الواردة في سحر النبي صلى الله عليه وسلم، لأن المسحور عندهم هو من خولط في عقله[١].

وليس كذلك، إذ السحر الذي أصيب به صلى الله عليه وسلم كان من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شئ من العقل ولا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العقد عن النساء، وهو الذي يسمونه ــ رباطاً ــ فكان يخيل إليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه، فإذا ما هم بحاجته عجز عن ذلك.

أما السحر الذي نفى عنه صلى الله عليه وسلم، فالمراد به الجنون، وهو مخل بمقاصد النبوة [٢].

وقد كان منهج الشيخ محمد رشيد رضا في التفسير مثل منهج شيخه الإمام محمد عبده، حذو القذة بالقذة، فالمنهج لكل منهما هو المنهج، والأفكار هي الأفكار، والمصادر هي المصادر، والغاية من التفسير هي الغاية، لا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر [٣].

وتفسيره رحمه الله تعالى مطبوع، يسمى بتفسير القرآن الحكيم واشتهر بتفسير المنار، والقدر المطبوع منه اثنا عشر مجلداً كباراً ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله (وما أبرئ نفسي) [٤]، وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير

---

(١) تفسير المنار / جـ٧ / ٣١١.

(٢) التفسير والمفسرون ج٢/ ٥٧٥.

(٣) انظر تفسير المنار على سبيل المثال جـ ١٦/١.

(٤) سورة يوسف / ٥٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سورة يوسف عليه السلام، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله تعالى ومن هذه الطبقة من المفسرين الشيخ محمد مصطفى المراغي، فهو قد تأثر تأثيراً بليغاً بروح الإمام محمد عبده، وقد نهج على طريقته من التجديد واطراح التقليد، والعمل على تنقية المفاهيم الإسلامية من الشوائب التي ألصقت بها، وتنبيه الغافلين إلى هداية القرآن وإرشادهم للتي هي أقوم، ولم يكن للشيخ تفسير كامل للقرآن، بل كان تفسيره لبعض السور والآيات.

وحسبه أن يكون قد لفت قلوب كثير من المسلمين إلى القرآن بمنهجه في التفسير، إذ قد أعرض كثير من المسلمين عن هديه وضلوا عن إرشاده، ويمتاز تفسير الشيخ بعنايته بإظهار أسرار التشريع الإسلامي وحكمة التكليف الإلهي، ليظهر بذلك محاسن الإسلام ويكشف عن هدايته للناس.

وكذلك التعرض لمعالجته المشاكل الاجتماعية، وبيان أسباب هذه المشاكل التي أدت إلى انحطاط الدول الإسلامية، فهو يعالج كل ذلك من خلال تفسيره للقرآن، بإبراز هداياته في ذلك [1].

وممن هو على طريقة الإمام محمد عبده في التفسير والإصلاح وحرية العقل، وله تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، وقد تأسى في هذا بالشيخ محمد عبد الله دراز، في كتابه العظيم (النبأ العظيم) الشيخ محمد الغزالي، وهو

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ج٢ / ٥٩٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفسير مجمل لموضوعات السور [١].

وممن هو قريب من هذه الطبقة من المفسرين الأستاذ الأديب العالم المفسر سيد قطب إبراهيم، تخرج في دار العلوم سنة ١٩٣٤م وقد ولد في قرية موشا في أسيوط[٢] سنة ١٩٠٦م.

وكان من أهم وأبرز مؤلفاته تفسيره المسمى (في ظلال القرآن) وقد طبع مراراً والطبعة الأخيرة فريدة ومنقحة، وذلك بإضافات تركها المؤلف الشهيد [٣].

ومنهجه في التفسير إبراز هدايات القرآن، وإرشاد الناس إليها والاهتمام بقضايا المجتمع الإسلامي دراسة وعرضاً وتحليلاً.

والتركيز على الاحتكام إلى النصوص، من الكتاب والسنة للوصول إلى الكمال في جميع مناحي الحياة، والتقيد بهذه النصوص وفهمها فهماً وسطياً، وهو يعرض هذا كله باستخدام النزعة الأدبية واستخدام المصطلحات التي يستخدمها الأدباء، من التصوير بالوصف والحشد وجرس اللفظ ونغم العبارة، وموسيقى السياق والتناسق المعنوي والتسلسل النفسي، ووحدة الحركة، والتصوير العريض، ورسم الشخصيات وغير ذلك مما حفل به عرضه في تفسير القرآن، ولعل الذي حدى به إلى هذا الأسلوب، هو أنه يريد أن يجعل المتأمل والناظر للقرآن، يعايش ويشاهد من خلال تفسيره ما يخبر به القرآن ويعرضه لا مجرد نظر وتأمل.

---

(١) انظر تفسيره المطبوع / ١٩٩، لسورة الحجر.

(٢) معجم المفسرين / ١ / ٢١٩.

(٣) مقدمة الكتاب /١ / ١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذ هذه الطريقة في التفسير أقوى تأثيراً من غيرها في النفوس.

ولعل أسلوبه الأدبي الذي ساق تفسيره عليه في الغالب، جعل بعض من لم يدرك ذلك يلزمه بالقول بوحدة الوجود [1]، التي يقول بها من يعتقد بالثنائية والتثليث، وبعض الصوفية الحلولية.

وهو إلزام غير صحيح، بل هو إلزام باطل، وذلك لأن هذا اللازم لم يقل به في أي موضع من مؤلفاته المتعلقة بتفسير القرآن.

ولازم القول ليس بقول، كما قرره الأصوليون [2] إلا إذا صرح بهذا اللازم في موضع آخر، من مؤلفاته، وهذا لم يقع.

بل إن كتب الأستاذ سيد قطب غايتها هو تحقيق التوحيد الخالص.

وبالجملة فالأستاذ رحمه الله تعالى من طبقة المفسرين المجددين الذين يجذبون الناس إلى هدايات القرآن الكبرى وإرشاداته، والخلق جميعاً في حاجة إليها.

وممن هو من هذه الطبقة من المفسرين، في إبراز هدايات القرآن الكبرى وبيان حقائق الإيمان، ونصاعة التوحيد، العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٣٠٧هـ ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى[3] وتفسيره المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسيز كلام المنان) قد أوجز فيه العبارة مع سهولتها ووضوحها، يستفيد منها الراسخ في العلم ومن

---

(١) انظر الظلال على سبيل المثال / م / ٣٤٧٩ ، فما بعدها.

(٢) ج ٣ /٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥، ٢٨٦، وقارن به ص ٣٦٥ ، ٣٦٦.

(٣) معجم المفسرين / ١ / ٢٧٩. .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دونه وقد تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة من إيراده، وتجنب تفسير المبهمات عن طريق الإسرائيليات.

وكان همه إبراز هدايات القرآن ومقاصد أحكامه وتشريعاته واستنباط الأحكام التي تدل عليها الآيات، وفوائد تلك الأحكام والكليات العامة من الآيات في التربية والأخلاق، وصحيح الاعتقاد باتباع طريقة السلف الصالح.

وبالجملة فالتفسير مع وجازته في العبارة وسهولتها، فهو متضمن للفوائد الجمة المتنوعة في كل باب من أبواب الهداية والمقاصد والمعرفة [١].

وممن هو من هذه الطبقة من المفسرين، وله جهود وتجديد في التفسير ويتميز ببيان حقائق الإيمان، وإقامة البراهين بكل وسيلة على ذلك، المفسر والمربي والداعية الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، ولد سنة ١٨٧٦م، وتوفى سنة ١٩٦٠م شيخ مدرسة الإيمان والبرهان والإعجاز [٢].

ومنهجه في التفسير قائم على بيان حقائق الإيمان، وإقامة البراهين على ذلك بالحجج الرصينة، وهذا من أكمل وأسطع البيان، وأكثره قيمة وإبراز الإعجاز القرآني من هذا الجانب الإيماني، وهو ما يسمى بالتفسير المعنوي، والذي يلزم أعتى الفلاسفة ويسكتهم، واعتبار

---

(١) انظر تفسيره على سبيل المثال / ٤٨.

(٢) انظر كليات رسائل النور / ٥٠٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكون كتاب الله تعالى المنظور، والذي يفسره كتابه المسطور [١].

وبالجملة فتفسيره ليس على الطريقة التقليدية، وإنما جامع بين طريقة القدماء مع التجديد في إبراز حقائق الإيمان، وإقامة الحجة والبرهان بأسهل عبارة، حيث يسلم كل أحد له، وإبراز هدايات القرآن الكريم عن طريق التدقيق في بيان إعجازه، وهذا هو التفسير الذي يحتاجه الخلق اليوم [٢].

وممن هو من هذه الطبقة، وله جهود في التفسير الاجتماعي مع بعض الملاحظات التي قومها له علماء التفسير، الشيخ أبو الأعلى المودودي، المولود سنة ١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م، في أورنج آباد، في مقاطعة حيدر آباد، وأصبحت الآن أندرهابرادش بالهند، وتوفى سنة ١٩٧٩م، وأبرز مؤلفاته في التفسير تفسيره لسورة النور، وسورة الأحزاب، وهو مقتدٍ في ذلك بالأستاذ سيد قطب، غير أنه قد وقع في أخطاء، حيث لم يهتد إلى الصواب من تعبير الظلال [٣].

وأيّاً ما كان فقد كان مجتهداً، وحياته معروفة بتحصيل العلم ثم الجهاد بالدعوة والأذى بالسجن، مع التأثير الكبير لدعوته ولجماعته في البلاد [٤].

وممن هو من هذه الطبقة من المفسرين: الشيخ عبد الرحمن ابن محمد الدوسري، من قبيلة الدواسر، ولد في مدينة البحرين سنة ١٣٣٢هـ، وسافر به والده إلى الكويت ونشأ في بيئة صالحة، في محلة من حارات الكويت تدعى

---

(١) انظر المصدر السابق / ٤٢٨.

(٢) انظر المصدر السابق /٤٣٧.

(٣) مدارس ومناهج في تفسير القرآن / ١٨٠.

(٤) نفس المصدر / ٢٢١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محلة ــ المرقاب ــ وكان يحب الجمع بين الفقه والحديث، ولا يرى الفصل بينهما، فلا يحب الفقه خالياً من الدليل.

وله مؤلفات متنوعة أثرى بها المكتبة الإسلامية، وهذا التنوع في التأليف يدل على غزارة علمه وفهمه العميق الدقيق.

وأشهر مؤلفاته كتابه في التفسير المسمى بـ (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم).

وكان رحمه الله تعالى جامعاً في منهجه لتفسير القرآن بين اختيار ما روى من الآثار، وصياغتها بلغة العصر، لأن لغة الآثار جامعة للمعاني مع الإيجاز، إذ قد صيغت بلغة العصر الذي ذكرت فيه جامعة موجزة، فاختار منها الصحيح الجامع، وصاغه بلغة واسعة فيها إسهاب وزيادة بيان، يتناسب مع أهل العصر، مع إبراز قيمة التفسير بالأثر، وأن هذه الآثار بمثابة قواعد كلية ثابتة لا يمكن الاستغناء عنها بحال في فهم المراد من القرآن، وبجانب ذلك المعقولات التي يستنير بها مع تلك الآثار، سواء كانت تتعلق بالمعقول المعنوي أو المادي ولذا كان اهتمامه بإعادة المسلمين إلى المفاهيم الصحيحة للإسلام، والتي كان عليها الصحابة رضى الله عنهم، وبيان شمول هذه المفاهيم لكل ما يريد أن يعرفه الخلق، لاستقامة روحه وبدنه، وهو مفهوم قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) [1].

فتفسيره كان جامعاً لكل ألوان التفسير القديم والحديث بأسلوب سهل ميسر مقنع وكأنه قد جمع في تفسيره بين تفسير الطبري، مع تنوعه لأنواع

---

(١) راجع تفسيره / ١ / ٤٥ ، فهو مطبوع ، نشر وتوزيع دار الأرقم ــ الكويت ــ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التفسير، وتميزه بكثرة الآثار، وتفسير الأستاذ سيد قطب في التجديد والفهم وحداثة العصر، وبيان الحلول لمشاكل أهل هذا العصر الاجتماعية.

فاسم هذا التفسير ينطبق على مسماه حقاً [1].

مراحل تدوين التفسير حتى نهاية هذا القرن: ــ

لقد كان التفسير المدون في خطواته الأولى يعتمد على النقول عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم، والتابعين وتابعيهم، وكان أول كتاب ظهر في هذا اللون من التفسير كتاب لسعيد ابن جبير رحمه الله تعالى المتوفي سنة أربع وستين، وكان من أعلم التابعين في التفسير، ذكر ذلك قتادة وحكاه السيوطي في الإتقان [2].

ثم توالت بعد ذلك الكتب المؤلفة على هذه الطريقة، ومن أشهرها (الرغيب في القرآن) لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي، المتوفي سنة سبع ومائتين، ثم جاء ابن جرير الطبري المتوفي سنة عشر وثلاثمائة (جامع البيان) وكتابه جامع بالمأثورات والقراءات والاستشهاد بالشعر وجمع الأقوال وترجيح بعضها.

وكان ذلك في المائة الثالثة من الهجرة، وهناك مفسرون من هذه المائة نظراً لصعوبة الاستقصاء.

وفي المائة الرابعة ظهر تفسير أبي إسحاق أحمد الثعلبي النيسابوري ويسمى تفسيره (بالتفسير الكبير)، وقد ذكر في مقدمته أنواع التفسير، بين أهل

---

(١) انظر تفسيره على سبيل المثال / ١ / ٨٨.

(٢) الإتقان للسيوطي / ج ٢ / ١٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البدع، وأهل الخلط بين أقوال المبتدعة، وأقوال الصالحين من السلف، وقد مدح تفسير الإمام الطبري وتفسيره قريب منه، غير أنه يتوسع في المسائل النحوية، ويخوض فيها، ويشرح الكلمات لغوياً، ويتعرض لأصولها وتصاريفها، ويتوسع في الأحكام الفقهية،ويتوسع كذلك في نواحي علمية متعددة بتطويل ظاهر، يكاد يخرج به عن دائرة التفسير بالمأثور، وفي أواخر هذه المائة الخامسة ظهر كتاب (معالم التنزيل) للإمام البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوي. وكتابه مطبوع، وطريقته قريبة من طريقة الإمام ابن جرير الطبري، وكتاب البغوي من أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور.

ومثل ذلك الكتاب كتاب (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، المتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة وتفسيره أصح نقلاً وبحثاً من غيره، وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها كما حصل منه، في تقديره لمذهب المعتزلة في الرؤية.

وكذا كتاب (البيان الجامع لكل علوم القرآن) وهو للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي شيخ الإمامية من الشيعة، غير أنه يميل فيه إلى عقيدة الشيعة، والكتاب مطبوع ومتداول.

وفي المائة السادسة ظهر كتاب (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوايل في وجوه التأويل) لمؤلفه أبي القاسم محمود بن عمر ابن محمد بن عمر الخوارزمي الملقب بجار الله، المتوفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة، وتفسيره على طريقة أهل البدع، فقد شحذ كتابه ببدع الاعتزال المتكلف، وهو تفسير بالرأي المذموم كما تقدم، غير أن كتابه يستفاد منه: في وجوه البيان، وفي المائة السابعة ظهر تفسير الإمام البيضاوي، والمسمى بـ (أنوار التنزيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأسرار التأويل) لمؤلفه ناصر الدين أبو الخير: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي وهو من بلاد فارس، المتوفي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وكتابه عبارة عن اختصار لتفسير الكشاف، لكنه ترك ما فيه من اعتزالات وكان يذهب إلى بعض ما يذهب إليه الزمخشري، وهو يستمد تفسيره كذلك من تفسير الإمام الرازي، وتفسير الراغب الأصفهاني، وقد أعمل عقله فضمنه نكات رائعة.

وقد أورد آثاراً في فضائل السور أغلبها فيه مقال.

وظهر في هذه المائة تفسير الإمام النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ومؤلفه الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، المتوفي سنة إحدى وسبعمائة من الهجرة، وتفسيره كأنه اختصار لتفسير البيضاوي، ومن الكشاف للزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر، وقد ضمنه وجوه الإعراب والقراءات ومسائل الفقه، وهو مقل من ذكر الإسرائيليات من غير أن يعقب عليها.

وظهر في هذه المائة تفسير (لباب التأويل في معان التنزيل) المعروف بـ (تفسير الخازن) وقد اختصره مؤلفه من تفسير الإمام البغوي – (معالم التنزيل).

وظهر في هذه المائة تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي وهو يذكر فيه كثيراً من البحوث النحوية والقراءات، ويوجه تلك القراءات في الغالب.

وفي المائة الثامنة ظهر تفسير ابن كثير المسمى بـ (تفسير القرآن العظيم) ومؤلفه أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتفسيره كأنه مختصر لتفسير الإمام الطبري، غير أنـــه يعتبـــر منقحـــاً لتفسير الطبري، فهو يعقب على غالب الروايات التي يذكرها في التفسير.

وفي المائة التاسعة ظهر كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للإمام البقاعي، وهو أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي، المتوفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة، وهو يهتم في تفسيره بعلم المناســبات بــين الــسور والآيات، وظهر في هذه المائة تفسير (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) لنظــام الدين بن الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني النيسابوري.

وقد اختصره من تفسير الفخر الرازي، وضم إلى ذلك بعض ما جاء في الكشاف للإمام الزمخشري.

وظهر في هذه المائة تفسير الجلالين، وهو تفسير مختصر، وهو تــأليف مشترك بين جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.

وفي المائة العاشرة ظهر تفسير (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتــاب الكريم) لمؤلفه أبي السعود محمد بن محمد مصطفى العمادي المتوفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة.

وهذا التفسير كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، وقد شهد له كثير من العلماء بأنه من خير ما كتب في التفسير.

وليس في هذا التفسير شئ من الاعتزال.

وفي المائة الحادية عشر، ظهر كتاب (عــين الحياة) للشيخ بهاء الدين العاملي الكركي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي المائة الثانية عشر، ظهر كتاب (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للإمام الألوسي.

وهو: أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفي سنة ألف ومائتين وسبعين من الهجرة.

وكان رحمه الله تعالى آية من آيات الله العظام في العلم والمعرفة فهو بحر العلوم، وتفسيره من أجمع التفاسير، فهو تفسير جامع لآراء السلف رواية ودراية مشتملاً على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية.

فهو تفسير جامع لكل ما سبقه من التفاسير، وهو سلفي العقيدة ولهذا فهو في تفسيره يفند آراء المعتزلة والشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لعقيدة السلف، وهم الصحابة رضى الله عنهم، ومن تبعهم في طريقتهم بإحسان، غير أنه ضمن تفسيره بما يسمى بالتفسير الإشاري عقب تفسيره لكل جملة من الآيات، غير مبين إن كان يرى هذا التفسير أم لا.

وفي المائة الرابعة عشر ظهر كتاب (المنار)، وكان قد تتلمذ على الإمام محمد عبده ومؤلفه السيد محمد رشيد رضا، وتفسيره يسمى بـ (تفسير القرآن الحكيم) واشتهر بتفسير المنار، غير أنه لم يكمله؛ إذ قد عاجلته المنية قبل أن يتمه، وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثنى عشر مجلداً كباراً.

وقد تقدم تعريف شامل عن تفسيره [1].

هذا وهناك كثير من المفسرين والتفاسير لا يمكن أن تحصى في هذا المختصر، وهي كتب نفيسة، وجاءت بين كل مائة سنة، مما ذكر من قبل، ومنها

---

(١) تقدم ص / ٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما كتب له الظهور والطبع، ومنها ما هو مخطوط حتى الآن وهي بين التفسير المأثور، والتفسير بالرأي المحمود والمذموم.

ومن الكتب المفيدة في التفسير، والتي تتناول التفسير من نواحي متعددة للوصول إلى المراد من آي القرآن، مع سهولة ويسر عبارتها: ــ

١ــ كتاب (فتح القدير) للإمام الشوكاني.

٢ــ كتاب (محاسن التأويل) للإمام القاسمي.

٣ــ كتاب (تفسير القرآن الحكيم) المشهور بتفسير المنار، للشيخ رشيد رضا.

٤ــ كتاب (روح المعاني) للإمام الألوسي.

٥ــ تفسير (المحرر الوجيز) لابن عطية الأندلسي.

٦ــ تفسير (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم) للشيخ الدوسري.

٧ــ وعمدة هؤلاء وغيرهم (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ.

وهناك تفاسير قريبة مما ذكر، ولا ريب أن طالب علم التفسير وأصوله لا يستغني عن أي تفسير من التفاسير التي ذكرت في هذا البحث، والتي لم تذكر، سواء كانت في تفسير القرآن كله أو بعضه، إذ ما من تفسير إلا وله ميزة وخاصية تميزه عن غيره، وطالب التفسير محتاج للجميع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا يزال العلماء من المفسرين وغيرهم يجتهدون ويبذلون جهدهم في استخراج معاني وأسرار القرآن عن طريق تفسيره، ووراء ذلك ما وراءه، إذ يظل هذا الأمر إلى يوم القيامة، في استحالة وجود تفسير يحيط بكل مراد الله تعالى من الآيات.

فالأمر كما قال تعالى: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) (١).

أبرز التفاسير في هذا القرن: ـ

إن الذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يساوره شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، سواء كان من الناحية اللغوية أو البلاغية أو النحوية أو الفقهية، أو المذهبية، أو الفلسفية، أو العلمية، أو الاجتماعية، أو الأثرية، أو غير ذلك من النواحي التي تناولها المفسرون الأول.

وغالب هذه النواحي قد توسعوا فيها توسعاً ظاهراً، وهذا التوسع لم يترك لمن جاء بعدهم ـ إلى ما قبل عصرنا بقليل ـ من عمل جديد أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم، إلا ما كان عملاً ضئيلاً لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحاً لغامضها، أو توسعاً مواكباً لما ظهر من العلوم الحديثة لمواكبته بما يسمى بعصر النهضة العلمية الحديثة.

وإلا ما كان من اللون الذي يغلب عليه بيان حقائق الإيمان والتأكيد على هذه القضية، وربط مقاصد القرآن بهذا الأصل الذي يعتبره المفسر أصلاً من أصول القرآن والدين.

---

(١) سورة الكهف / ١٠٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأنه إذا تحققت تلك القضية على ما ساقه القرآن من أدلة، فإن القضايا الأخرى سهلة التناول والعمل بها لدى المؤمن.

فالأصل تحقيق الإيمان بمفهومه الواسع، وذلك من النصوص القرآنية ليكون ذلك أكبر دافع للعمل بموجبه.

وهذا ما كان من طريقة تفسير العلامة الشيخ بديع الزمان النورسي وقد مر ذكر تفسيره.

وكان من ذلك تفسير الإمام محمد متولي الشعراوي، فيما سماه (خواطر قرآنية) وذلك في إبراز جماليات وإبداعات النظم القرآني وإبراز إعجاز القرآن في حكمه وأحكامه، واحتياج الخلق إلى تدبر القرآن، لأن فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم أحوج ما يكونون إليه في هذا الزمان الذي تقدم فيه العلم المادي، ولا ضابط يضبطه ولا مبادئ تنظمه وتوجهه وتحكمه [1].

فأولى هذه المدارس بما يطلق عليه تفسير، هي المدرسة التي حاولت جمع أقصى ما يمكن جمعه من ألوان التفسير القديم والحديث في أسلوب سهل ميسر، مع بيان إعجاز القرآن في كل مجالات الحياة من غير إسراف.

وإبراز مقاصده وغاياته وعلو سلطانه، وبديع نظمه، وأنه كتاب جامع لكل ألوان الخير، ومتضمن سعادة الدنيا والآخرة، لا تنتهي عجائبه ولا يمل حديثه، وبيان احتياج الخلق إلى تعاليمه وهداياته في كل شئ وأن هذا الاحتياج مستمر إلى يوم القيامة.

* * *

---

(١) انظر تفسيره على سبيل المثال جـ ٣/١٤٧٥ ، في ذكر المراد بلقب المسيح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتـــــمة

تلك هي طبقات المفسرين بالرأي على مر العصور، فطبقة منهم برع كل واحد منهم في علم من علوم التفسير، وكان غالب تفسيره يحمل لون العلم الـذي برع فيه.

وقد يحمل مع هذا في تفسيره علوم أخرى، غير أن الذي يغلب عليه مـا كان بارزاً فيه، وقد يكون هذا الآخر من العلوم من علوم أصول التفسير، وقـد يكون علماً مصطلحاً عليه بدعي.

فالأول يؤخذ منه ما غلب عليه، وما تفرع منه، ما دام من علوم وأصول القرآن المتفق عليها لدى العلماء.

والثاني لا يرد مطلقاً إذا كان يشتمل على علم من علوم القرآن بل يؤخذ منه ما كان مبنياً على الأصول المتفق عليها، كما هو شـأن تفـسير الكـشاف المعتزلي، ويرد ما كان مبنياً على أصول الاعتزال.

إذ لا يمنع أخذ محاسن التفسير المبني على أصول التفسير المتفق عليها من أي تفسير كان، ويرد ما كان بدعياً لا أصل له.

وهذه الطبقة بنوعيها كثيرة، قد يوجد أفرادها في زمن واحد، وقد يوجدوا في أزمنة مختلفة.

والطبقة الثانية هي طبقة الذين انحرفوا عن تفـسير القـرآن بالأصـول المتفق عليها، ومالوا إلى اصطلاحات عقدية ومذهبية وفلـسفية ولـذا خرجـوا بالنصوص القرآنية عن معانيها التي نزلت من أجلها وحرفوا بذلك الكلـم عـن مواضعه موافقة لمعتقدهم أو اصطلاحاتهم الخاصة بهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه التفاسير على اختلافها منهجاً وزمناً مردودة، لا يقبل منها شئ إلا ما أمكن حمله من معنى الآية، وإن كان بعيداً، غير أنه ليس بلازم القبول.

وذلك كما في التفسير الصوفي الإشاري، أو الصوفي النظري، أو غير ذلك من التفاسير التي بنيت على اصطلاح خاص بأهله.

وهذه الطبقة متواجدة في كل زمان، وذلك بعد زمن التنزيل وستظل كذلك إلى يوم القيامة، إذ وراؤها أعداء هذا الكتاب الذي يشتمل على بيان كل شئ، ولأنهم يتبعون أهواءهم، فلا يرون أفضل من الدخول من باب التفسير لابطال وتحريف المعاني والأحكام السامية.

والطبقة الثالثة هي طبقة المفسرين المجددين، الذين أخذوا بكل قواعد التفسير رواية ودراية ــ المأثور والرأي المحمود المبني على التفسير المأثور ــ وزادوا في توسيع دائرة الأصول التفسيرية رواية ودراية، باستتباع وسائل في استنتاج أساليب متنوعة من هذه الأصول في عرض وبيان سلطان القرآن، الذي هو حجة الله البالغة على جميع الخلق.

فهذه الطبقة بذلت جهداً كبيراً في تجديد العرض وإبراز بعض وجوه إعجاز هذا الكتاب الذي لا تنتهي، تاركين لمجددين غيرهم سيأتون بعدهم يبرزون بعضاً آخر، وهكذا إلى يوم القيامة.

وفرق بين الجديد والتجديد، فالجديد هو الذي يباين الأول، أما التجديد فهو الذي يستند إلى الأصل الأول ويبعث فيه التجديد الذي غفل عنه الخلق، أو خفى عليهم، أو احتاجوا إليه، بسبب عوامل كل عصر فالأول دعوى باطلة، والثاني هو المقصود من هذه الطبقة التي وجدت على مر العصور، وفي كل زمان، لإقامة الحجة على الخلق في بيان سلطان وحى الله تعالى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) [1].

فالجامع لهذه الطبقة، إنما هو منهج التجديد في تفسير القرآن الكريم، الذي لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الترداد.

وإن تباين بين أفراد هذه الطبقة الأزمان، وتباعدت بينهم الأقطار والبلدان.

فالذي يجمعهم هو طريقة التجديد التي أراد بها كل واحد منهم إبراز وجه أو وجوه النفاسة في بلاغة الآيات القرآنية، واللمحات الخفية فيها، واحتياج الخلق إليها ميعاداً ومعاشاً.

* * *

(١) سورة الأنعام / ١٤٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهرس المصادر والمراجع

١ــ الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) وبهامشه: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، عالم الكتب ــ بيروت.

٢ــ أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، الدكتور مساعد مسلم عبد الله آل جعفر، ط أولى ١٩٨٤م، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

٣ــ إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ط أولى، دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٦م.

٤ــ البحر المحيط، لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الأندلسي الشهير بأبي حيان (ت٧٥٤هـ) الناشر: مكتبة مقايع النصر ــ الرياض.

٥ــ بدائع الفوائد، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

٦ــ البرهان في علوم القرآن، للإمام محمد بن أبي عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ــ بيروت، ط ثالثة ١٤٠٠هـ.

٧ــ البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٨ــ التفسير والمفسرون، للشيخ محمد حسين الذهبي ــ ط ١٩٧٦م، دار الكتب الحديثة ــ مصر (ت ٩١٦١٠٧).

٩ــ تفسير القرآن الحكيم، وهو تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة ــ بيروت، ط ثانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٠ــ تفسير الإمام محمد عبده.

١١ــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، ط أولى ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

١٢ــ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله حمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، راجعه وخرج أحاديثه محمد إبراهيم الحفناوي ومحمود حامد عثمان، دار الحديث القاهرة ط أولى ١٩٩٤م.

١٣ــ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للإمام عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف أبي زيد الثعالبي (ت٨٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ ط أولى ١٩٩٧م.

١٤ــ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ) تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم دمشق، ط أولى ١٩٩١م.

١٥ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) دار الفكر ــ بيروت ١٩٨٣م.

١٦ــ زاد المسير في علم أصول التفسير، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي الدمشقي (ت٥٩٦هـ) المكتب الإسلامي ــ بيروت، ط أولى.

١٧ــ صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، للشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري، ط أولى ١٩٨١م، مكتبة دار الأرقم ــ الكويت.

١٨ــ الفتوحات المكية، للإمام ابن عربي، دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٩ــ في ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب إبراهيم، الطبعة الشرعية الواحدة والثلاثون سنة ٢٠٠٢م، دار الشروق ــ بيروت.

٢٠ــ كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط ١٩٩٨م.

٢١ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ) دار المعرفة ــ بيروت.

٢٢ــ كليات رسائل النور ــ المكتوبات ــ للشيخ العلامة: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط ثالثة، دار سوزلر للنشر ــ القاهرة.

٢٣ــ مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت٢١٣هـ) علق عليه فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ثانية ١٩٨١م.

٢٤ــ مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت٦٦٦هـ) دار الكتاب العربي ــ بيروت، ط أولى ١٩٦٧م.

٢٥ــ مدارس ومناهج في تفسير القرآن، للأستاذ الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر، ط أولى ١٩٩٨م.

٢٦ــ المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر ــ بيروت، ط أولى ١٩٩١م.

٢٧ــ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر للطباعة والنشر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٨ــ معجم المفسرين، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، تأليف عادل نويهض، ط ثالثة ١٩٨٨م، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت.

٢٩ــ معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ط أولى ١٩٨٨م.

٣٠ــ معاني القرآن للأخفش: سعيد بن سعدة البلخي المجاشقي الأوسط (ت٢٠٧هـ) ــ دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، ط أولى ١٩٨٥م.

٣١ــ مفاتيح الغيب، المسمى بالتفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) دار الكتب العلمية، ط ثانية.

٣٢ــ مجمع البيان، لأبي علي الطبرسي، طبع طهران ١٣٥٢هـ.

٣٣ــ المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبع ونشر دار المعرفة ــ بيروت.

٣٤ــ مناهج في التفسير، الدكتور مصطفى الصاوي الجويني، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية.

٣٥ــ الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت٧٩٠هـ) علق عليه الشيخ الكبير: عبد الله دراز، المكتبة التجارية ــ مصر.

٣٦ــ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي، ط ثالثة ١٩٩٧م، دار الشروق ــ بيروت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣٧ــ تفسير الشيخ الشعراوي، أخبار اليوم ــ قطاع الثقافة.

٣٨ــ رسائل بن سينا: أبو علي بن سينا، مطبعة هندية ١٩٠٨م.

٣٩ــ فصوص الحكم، للفارابي، مطبعة السعادة ١٩١٧م.

٤٠ــ رسائل أبي الفضائ: أبو الفضائل الإيراني، مطبعة السعادة ١٩٢٠م.

٤١ــ فصوص الحكم: للإمام محي الدين بن عربي، مطبعة الزمان ١٣٠٤هـ.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner